

ساحر الكتب
رواية
المسافر
الجزء 3 - THE TRAVELER
كما كان
إسلام عماد
دار اكتب



المسافر

ج3

كما كان



المسافر

ج3

كما كان

إسلام عماد

الطبعة الأولى ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 11535 /2017

I.S.B.N: 978-977-488-527-3



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور. المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com



المسافر

ج3

كما كان

رواية

إسلام عماد



دار اكتب للنشر والتوزيع



إلى رفقاء الرحلة....

انتهت الرحلة..

عسى ألا تنتهي رفقتكم..



كل ما حدث وما كان، لم يكن إلا لنصل لتلك النقطة



36

من الطبيعي أن تشعر بالسعادة.. فاليوم هو يوم زفافك إلى "أروى"

يتلاقى نصفا الروح بعد انفصال، برباط دائم حتى الممات، فيصيرا روحًا واحدة كما خُلقت...

تُهلّ عليك بفستانها الأبيض كالملائكة، فتمتد أصابعك نحوها فتتلمس يديها، لتقودك نحو الجنة...

يلتفُّ حولك أصدقاؤك ليشاطروك فرحتك، بينما تتوزع ابتساماتهم وقبلاتهم على خديك المبللين بالعرق..

حضر المعارف وما تبقى من عائلة "أروى"، وبالتأكيد لم يقبل فرد من عائلتك الثرية الحضور.. فها هو التاريخ يُعيد نفسه من جديد بتكرار مأساة زيجة والدك من فتاة متواضعة الشأن..



عم "خالد" دامع العينين من شدة الفرحة، وبذلته البسيطة تضيف لشخصيته مزيدًا من الجمال، بينما أحاط بك زملاء العمل والأستاذ "أحمد متولي" مديرك الجديد ليشهدوا تلك الليلة المميزة..

كل شيء قد صار جاهزًا بالفعل، والموسيقى والزغاريد تُعلنان اكتمال الفرحة...

تدور الدوائر حولكما، وبالقلب "أروى" قد صارت قِبلة المهنئين.. صخب الأغاني ذات الإيقاع السريع والصوت العالي يشغل عقلك عن التفكير...

إنها البهجة الخالصة في أكثر صورها اكتمالًا..

كلا.. البهجة منقوصة، وبشدة...

عام كامل قد انقضى ..

فترة ليست بالقليلة... فترة كافية لتخطي أثر الأحداث نسبيًّا لإكمال حياتك وإن كنتَ مضطرًّا..

لماذا إذن ظل الشقاء ساكنًا بقلبك وعقلك؟ بداخلك شيء ما قد انطفأ، ولا سبيل لعودته مرة أخرى...

جدك الذي واريت جثته التراب أمرك بإكمال ترتيبات الزواج، وكأن شيئًا لم يكن...

صديق عمرك الذي انتهت حياته في لحظة انقلاب السيارة...



آه لو لم يكن ما كان...وعاد كل ما كان، كما كان....

***

أتذكّر ذلك العام جيدًا، كما لو كان البارحة...لم أتمكن مِن إخبار من حولي بما حدث، وكتمتُ حزني الشديد بداخلي.. بالطبع لم يكن ذلك كافيًا، فظهرت شذرات منه بأوقات متفرقة، نالت انتباه "أروى" وأصدقائي المقربين، لكني تعللت وقتها بإرهاق العمل أو ضغوط الحياة المعتادة والتي تتمكن مننا جميعًا...

تركتُ الساعة نهائيًّا طوال ذلك العام.. أراها فأستعيد وفاة جدي، وتتردد كلماته الأخيرة في عقلي..

لماذا أمرني بتركه هناك؟ كان بالإمكان أن أنقذه، أو على الأقل أُعيده إلى زمنه الطبيعي، لماذا ذلك الإصرار الغريب يا جدي؟!

الندم...

ما خُلق الندم إلا لأوقات كهذه، ودائمًا ما يكون بلا أي فائدة تُذكر...

ما حدث قد حدث، ولن تتمكن من تبديله.. حتى إذا امتلكت آلة زمن!

***



"الزمن لو حصل فيه تغيير بسيط، بيصحح نفسه بنفسه، فيتلاشى التغيير دا مع الأحداث التانية.. أما التغييرات الكبيرة لو زادت عن حدها وكترت، ممكن دا يسبب انهيار تام لمجرى الزمن.. الموضوع هيبقى أكبر من قدرتنا المحدودة على إيقافه.. أرجوك يا أدهم.. إبعد الأفكار دي عن دماغك نهائيًا، وياريت متقترحش الموضوع دا تاني".

تقف كلمات جدي حائلًا بيني وبين أشد رغباتي.. كيف تضيع تلك الفرصة مستحيلة الحدوث؟!

عام كامل من القهر والأسى.. تراودني أحداث تلك الأيام الآن فتزيد في قلبي كراهيتها أكثر من قبل...

نحن لا نكره الماضي.. بل نتوهم كراهيته لصعوبة عودتنا إليه مرة أخرى.. لكن بأكثر أركان ذواتنا عمقًا، تختبئ أمانينا بالعودة لأيام ماضينا الضائعة، ذكرياتنا، أشواقنا الأولى، ولحظات السكينة التي لن تتكرر ثانية...

استفزني وجود الساعة على مكتب جدي طوال تلك الأيام، وكأنها تناديني بصوت خفي، يحثني على اختيار الرحلة القادمة.. لكن لا رحلات بعد الآن...

أُرغِم عقلي على عدم الإنصات لذلك الصوت، فيبادرني صوت آخر.. صوت مفعم بالشماتة.. صوت عتيق قادم من أعماق الزمن.. إنها ساحرة القيروان تتمتم بلعناتها ونبوءاتها الغامضة..



يا الله!! متى سينتهي ذلك الجنون؟!

***

مش عارف ليه... متونس بيكي وكأنك من دمي...

على راحتي معاكي ..وكأنك أمي مش عارف ليه..

***

تأفف كبيرهم بصوت واضح، ثم أعلن تأففه بكلمات غاضبة:

– أنا بقول كفاية سرحان بأه لغاية كده.. إنت مصمم انك متوصلش للحدث الأهم، ودا مش في مصلحتك على فكرة.

أنظر له، وللباقين بعين نصف خاملة.. ما أدراه بالحدث الأهم فيما أحكي؟ هل رأى ما رأيت؟ هل أصابه ما أصابني؟

أمنع نفسي بصعوبة من إجابتهم بردود تفضح جهلهم، فلا فائدة من مناقشتهم.. لا فائدة على الإطلاق!

أجبته بكل برود:

– أنا قلت هحكي على كل حاجة.. استنى كام دقيقة وهتعرف الحقيقة..

تلاقت أعيننا في غضب مكبوت، وقد فضحه تشوقه لمعرفة المزيد، ثم أشار لي بيده بإهمال مفتعل كي أكمل سرد قصتي..



37

أسبوعان (ب.أ).. "بعد أروى"

**

تم اعتبار ميلاد المسيح – عليه السلام– نقطة محورية في التأريخ الميلادي، يقسمه لما قبل وما بعد.. أما أنا، فرحيل "أروى" كان نقطتي المحورية، فلم تعد حياتي بعدها مثلما كانت قبل ذلك...

أخرج الطبيب قلمًا من جيب معطفه ووضعه أمامي، ثم ألقى عامل الغرف برزمة من الورق الأبيض على فراشي بلا اكتراث..

نظرت لرزمة الورق ناصعة البياض وقلم الحبر السائل متسائلًا.. فبادرني بالرد سريعًا:

– دا ورق وقلم يا أستاذ أدهم.. اتفضل اكتب فيه أي حاجة تعجبك.. فضفض فيها عن اللى مزعلك، اللي شاغل بالك.. أي



حاجة تيجي في دماغك..احكيلنا قصة حياتك، طفولتك، أحلامك.. كل حاجة.

منهيًا كلامه بابتسامة لزجة..

في البداية أهملت وجود تلك الأوراق لأيام متوالية.. ثم غلبني الملل بعدما تعرضت لروتين الحياة في تلك المصحة...

غرفتي خالية من أي وسائل للتسلية، بينما اكتست جميع محتوياتها القليلة باللون الأبيض.. يظنونه مهدئًا طبيعيًّا للمرضى، ويجهلون أنه عذاب مستديم لمن يضطر للوجود بين تلك الجدران الأربعة...

نظرت للأوراق أمامي.. كذلك كانت ناصعة البياض، فقلت لنفسي "ولِمَ لا؟" ها هي وسيلة لإلغاء نصوع تلك الأوراق، لون جديد يُضاف لكل ذلك البياض.. ما هي إلا بعض الخواطر المتناثرة أُفصح فيها عن مكنون ذاتي، لذاتي.. لن أسمح لهم بقراءتها..

قررت أن ألهو قليلًا، فبدأت الكتابة بأسلوب مسرحي للغاية..

أمسكت يدي بالقلم، وخططت أولى الكلمات على تلك الورقة الفارغة..

"في إحدى ليالي ديسمبر الباردة عام 1985.. ارتفع صوت بكاء طفل رضيع....

***



بعد ذلك بأسبوع...

تسلّل ضوء النهار من نافذة الغرفة لأجدني قد غفوتُ أثناء كتابتي، مددتُ يدي نحو المائدة لأتلمس الأوراق استكمالًا لطقوس الكتابة التي صارت متعتي الجديدة..

تبًا لذلك.. لقد باغتوني أثناء نومي، وحصلوا عليها سرًا..

سيتمكنون من معرفة ماضيّ الذي رغبت في إخفائه عنهم، ويقرؤون ما كتبته عن "أروى" وعملي بالمحطة، وجدي والساعة وكل ما حدث.. أسبوع من الكتابة المتواصلة صارت بين أيديهم القذرة..

طوال اليوم لم أجد ردًا منهم، ولم يقابلني أحد من طاقم العمل.. هل يتحاشونني؟ أم هم مشغولون بقراءة الأوراق؟؟

علمتُ الإجابة في اليوم التالي.. بعدما أرسلوا ذلك الممرض الشاب الذي لم أُطق رؤيته طوال فترتي بالمصحة..

– الدكاترة عاوزينك يا أستاذ أدهم.

لم أرغب بالشجار معه بخصوص الأوراق، فأسياده هم الجناة الحقيقيون..

تبعته في بطء شديد لغرفة الأطباء.. غرفة بيضاء واسعة جيدة الإضاءة، خالية الأثاث، إلا من مائدة خشبية عريضة استند عليها أغلب الحاضرين الخمسة..

دلفنا للغرفة فوجدتهم منهمكين معًا في نقاش حاد، انتهى فجاه بمجرد دخولي...

رأيت الأوراق أمامهم.. فهموا من نظراتي أنني قد أدركت فعلتهم الشنعاء.. حسنًا أيها الأوغاد.. فلتأتوني بما لديكم!

تكلم كبيرهم ذو الشعر الأبيض المتناثر على جانبي صلعته، وبصوت أراد ان يجعله وقورًا بدأ كلامه:

– أهلًا بيك يا أستاذ أدهم.. اتفضل اقعد شوية معانا.

لم أردَّ سلامه، وجلستُ على ذلك المقعد الماثل أمامهم كمنصة يقف بها الأسير أمام لجنة استجوابه..

أغلق الممرض باب الغرفة، وأكمل كبيرهم الكلام..



- أنا الدكتور جودت فكري.. كبير الأطباء في المصحة هنا.. طبعًا دي أول مرة تقابلني، ويسعدني أقدملك بقية الدكاترة.

ثم أشار للأطباء الأربعة المتراصين حوله.. امرأة أربعينية جالسة على يمينه، وبجانبها شاب في أوائل الثلاثينيات، ثم بالناحية الأخرى رجل بدين قليلًا يبدو على ملامحه الإرهاق وبجانبه شاب عشريني فاجئتني نظرات الاهتمام الواضحة على مُحيَّاه..

لم أكترث لأسمائهم.. رغبت في معرفة جدوى إحضارهم لي، وكأنما قرأت أفكاري.. تفوّهت الأربعينية قائلة:

- دلوقتي إحنا شوفنا الورق اللي انت كتبته.. إحنا هنا في المصحة، بنعتبر الكتابة أفضل طريقة لمعرفة النفس البشرية، وفيه علم رسمي بيدرس خط المريض ويفهم منه سلوكياته النفسية، ومصحات كتيرة في العالم بتستخدم الوسيلة دي للعلاج النفسي، وبتحقق نتائج مذهلة في حالات كتيرة...

بس بصراحة إحنا لما قرينا كلامك المكتوب، حسينا بشيء غريب جدًّا.. كلامك مُتقن جدًّا، ودا بيدل على إنك إنسان واعي وذكي، وخطك منمق وهادئ، فقررنا إننا نناقشك شوية في اللي إنت كتبته دا.

ظللت صامتًا لدقيقة.. ثم أجبتها بهدوء:



- عاوزين إيه؟

التقط "جودت" طرف الخيط وأكمل:

- عاوزينك تكمّل كلامك دا.. يا ترى إيه اللي حصل بعد كده، وخلاّك تقتل أروى زوجتك؟

ارتعش جسدي بمجرد ذكره لتلك الكلمات، وأجبته بغضب:

- مــحصلش!!

نظرت لي الطبيبة بهدوء كأنما اعتادت تلك الأفعال وأردفت:

- مش مشكلة دلوقتي.. اتفضل كمّل كلامك وهنوصل للموضوع دا بعدين.

تسارعت الأفكار في عقلي.. هل أسرد لهم بالفعل ما حدث؟ أم أكتفي بصمتي..

تخيلتني أُخاطبهم خطبة عصماء، أفضح فيها غباءهم..

" أظنكم قد قرأتم ما كتبته بتلك الورقات التي وصلت إليكم، وإلا ما كنتم استدعيتموني إلى هنا!، وأرى في عيونكم نظرات الاستنكار وعدم التصديق ممتزجة ببعض اللامبالاة الكاذبة...

لكم الحق في ذلك، ولي مطلق الحرية في عدم الاكتراث لنظراتكم تلك.



من رأى مثلما رأيته بتلك الشهور السابقة سيعلم مدى صدق كلماتي، أما مَن هو مثلكم، فإني بالفعل أشفق على عقله المقتنع بطبيعه الزمن من حوله ويحيا واثقًا بثبات قوانينه بكل رضا وهدوء...

أعلم أنكم قد رأيتم من هم مثلي كثيرًا، وأنكم تجزمون بجنوني الآن...

ولكنني سأكمل لكم السرد هذه المرة بدون وسيط ينقل قصتي.. ستخرج أحداثها من فمي لآذانكم الغافلة.. لعلكم تدركون كيف انهدمت أركان حياتي ووصل حالي لما أنا فيه الآن من سوء ترثى له نفوسكم...

وما زلت مصرًا على رأيي.. فهو ما تبقى لي مما أملك بعدما ضاع كل شيء...

إذا أردتم سماع باقي قصتي، فلا تخضعوها لثوابتكم الهشة...

اتركوا وراءكم كل ما تعلمونه....

فقد كنتُ مثلكم، ولكني أدركتُ حقيقة ما نحن فيه من وهمٍ...

لم يسمع من حولي أي كلمة مما دار بعقلي، ولكنهم أنصتوا بشدة لما قلته في الساعات التالية...

ولمدة خمس ساعات كاملة.. أكملت لهم قصتي..

***



38

عامان (ب.أ)

**

تمكنتُ أخيرًا من الهروب من سطوة هؤلاء الأطباء.. تلك المصحة اللعينة التي أضعت فيها عامين كاملين بدعوى علاجي من الجنون الذي أصابني...

هربت، وبحوزتي كل ما كتبته لهم من أحداث حياتي.. تلك الفكرة التي ظنّ صاحبها أنها طريقة ناجعة لعلاج مرضاه...

يصيبني غثيان مريع كلما عاد لذاكرتي ما اضطررت لفعله للفرار من المصحة.. أيغفر الله لي ما حدث؟

هل تملكتني شهوة القتل فعلًا؟ فعلتها مرة في رحلتي الأخيرة مع جدي.. ثم الآن...



فهل كنت الفاعل الحقيقي وراء مقتل "أروى"؟

تحاصرني الأسئلة من كل صوب.. أراها أمامي مسطورة بخربشات على جدران المباني، في عيون المارة، على لوحات الإعلانات وبإشارات المرور.. تتجمع قطرات الماء لتكتبها على الأسفلت.. ينعق الغراب قائلًا إياها..

مَنْ فعلها؟

من فعلها؟

من فعلها؟

عدت لشقة جدي بشبرا، فما صار المكان هو المكان، ولا الزمان هو الزمان...

غمرني التردد لحظات قبل عودتي تلك، فكيف أعود وذكرياتي القديمة تحاصر المكان؟

مكثت بالشقة ساعات قلائل، جمعت بها متعلقاتي الشخصية التي قد احتاجها في أيامي القادمة، التي أجهل إلى متى ستمتد وكم منها سأظلُّ حيًّا.. أو على الأقل شبه حيٍّ...

لم تطل إقامتي بشقة جدي، فقد انتابني هاجس مؤكد بقدرة الشرطة أو إدارة المصحة على إيجادي بعنواني المسجل لديهم..

صارت الشقة ككهف مهجور..



رأت تلك الشقة أيامًا سوداء خلال فترة تحولها من شقة سكنية إلى مسرح جريمة يتم فحصه بكل دقة، ثم ذلك المكان المعزول لعامين كاملين..

حاولت إبعاد كل ذكرياتي الأليمة التي ارتبطت بذلك المكان، فلم أفلح...

فشلت حتى في استعادة ذكرياتي السعيدة...

لهو "أروى" – رحمها الله –، وضحكاتها التي ملأت المكان بالبهجة خلال فترات وجودها بين أركان الشقة، لمساتها البديعة التي أحيت المنزل بعد موت طويل..

هل مرّت بحياتي أيام هانئة بالفعل، أم هي الذكرى تزين في عيوننا الماضي فتضفي عليه جمالًا زائفًا؟

بدّلتُ ملابسي ثم حزمت أغراضي بإحدى الحقائب، ووضعتُ بها كل النقود التي وجدتها بالشقة.. كان مبلغًا لا بأس به، يكفيني لشهور من الحياة البسيطة بلا أي بذخ..

صرت جاهزًا لإكمال رحلة هروبي من السلطات.. لكن هناك، عند مدخل غرفة المكتب.. يناديني صوت هادئ.. تبًّا له ذلك الصوت.. كلا، لن أخضع لهمساته اللعينة...



لكن لا يمكن ترك الساعة بإهمال هكذا.. سأقوم بتدميرها على الأقل، حتى لا تجلب المصائب لأحد من بعدي..

أمسك بمقبض الباب البارد.. ارتجفت يدي لوهلة، ثم فتحت الباب...

أراها بموضعها السابق، كأنثى تنتظر معشوقها الغائب منذ سنوات.. ينالني إغواؤها الدافئ، أتلمس الساعة بأصابعي لحظات تغمرني فيها بسيل من الأحداث والذكريات...

الذكرى كذلك وسيلة ضعيفة من وسائل السفر في الزمن...

تبًّا...

يجب أن آخذ الساعة معي...

***

ساد صمت طويل بينما ألقي نظرتي الأخيرة على شقة جدي، رغبت في توديع تلك البقعة، فلم تساعدني كلماتي.. اكتفيتُ بالصمت، ثم أغلقتُ الباب بلا رجعة...

ظللتُ سائرًا بلا وجهة أيامًا في الشوارع المظلمة ليلًا ونهارًا.. تلك أيام لم يعد فيها للضياء مكانٌ...

الجو شديد البرودة.. لماذا لا ترتعد السماء ببرقها ورعدها؟ لماذا لا تحاكي السماء نفوسنا؟ دائمًا ما نرى ذلك المشهد التقليدي في الأفلام



التجارية، عندما يعمي البرق الأبصار، وترتج السماء بالرعد في أوقات اكتئاب البطل أو غضبه الشديد.. فلِمَ لا تشاطرني السماء انفعالاتي الآن؟

أعشقُ صوت الرعد.. يذكرني بضآلتي التي أنساها أحيانًا.. يمكنني أن أستمع إليه لساعات بدون الإحساس بأي ملل يُذكر...

ولكني لست طماعًا الآن.. يكفيني قطرات رقيقة من ماء المطر، علّها تغسل روحي مما أصابها من سواد!

أنظر بيأس للسماء الصافية بلا أي غيوم، فأعلم أن أمنيتي لن تتحقق قريبًا..

تستمر خطواتي التي لا أعلم إلى أين تقودني، تتحسس أصابعي الساعة الذهبية بجيب سروالي الجينز، وعلى ظهري حقيبتي المليئة ببعض الملابس القليلة، وأدوات شحن الساعة وأوراق مذكراتي..

أرى أمامي فندقًا رخيصًا يصلح لمبيت ليلة، وهذا كل ما يريده جسدي المرهق الآن..

ينظر لي العامل بعين غافية، منحته تكلفة الليلة، فأعطاني في يدي مفتاحًا قذرًا للغرفة...

في صباح اليوم التالي، تركت ذلك الفندق الرخيص، وأكملت تجوالي بالشوارع، مستترًا بالزحام، ومعتمدًا على لحيتي التي استطالت



قليلًا، وجسدي الذي نحف عما سبق كثيرًا، تراقبني الأعين أحيانًا باندهاش من سوء حالتي، ثم يظنونني متسولًا ممن تمتلئ بهم شوارعنا، فيتركونني لشأني ويكملون سيرهم وحياتهم البائسة...

أتذكر طبيب المصحة عندما أخبرني بانتشار خبر مقتل "أروى"، وكيف أستحوذ على انتباه الجماهير وقتها..

"اقرا الحادثة.. الإذاعي المشهور أدهم عبد الرحمن يقتل زوجته أروى بعد نصف عام من زواجهم".

"مصدر موثوق يؤكد أن الجاني يُعاني عدم اتزان في حالته العقلية"

"أسباب تتعلق بالشرف وراء مصرع زوجة الإذاعي أدهم عبد الرحمن".

عناوين بالأسود في الجرائد الرسمية، وعناوين عريضة بالأحمر في الجرائد الصفراء.. يمتزج الأحمر بالأصفر لينتج جريدة برتقالية فاقعة اللون والمحتوى..

لم أهتم بما قيل وما كُتب.. صارت حرفة الشائعات هي المصدر الأساسي لصناعة الإعلام وإذاعة الأخبار في أيامنا هذه، والجمهور يدرك ذلك جيدًا، بل يعشقه حتى النخاع.. أتخيَّل أحيانًا كثيرة، إننا جميعًا صرنا كسيدتين مستغرقتين في نميمة عميقة تطال عرض وشرف سائر جيران الحارة..



قررت ترك القاهرة تمامًا والاختباء بمحافظة أخرى.. فذلك سيبعدني عن العيون بشكل أفضل وأكثر أمانًا...

تذكرت إحدى الشقق التي سبق لجدي امتلاكها بإحدى مناطق الإسكندرية.. بحثت عن مفتاحها بين متعلقاتي، فوجدتها بسلسلة المفاتيح التي أحضرتها معي من شقة جدي.. تيقنتُ من توافر المال الكافي..

إذن..

إلى الإسكندرية!

***

ترتبط رؤية البحر دائمًا بالشجن، الحنين للماضي واستعادة الذكريات التي نراوغ بها قبضة الزمان...

فما بالك وقد صار هؤلاء رفاقي الدائمين؟

ماذا ستمنحني أيها البحر أكثر مما جاد عليّ به الزمن في أيامي السابقة؟

لن أفقد أكثر مما فقدت، ولم يتبقَّ أحد لكي يرحل عني.. لقد رحل الجميع..

ذلك الجُرح بشفتي الذي أصابني.. آلمني لأيام.. ثم عندما اعتدت وجوده، رحل...



منذ أعوام قليلة، أصابني ذلك الجُرح الآخر الذي لم أظنه سيندمل.. لكنه اندمل ورحل تاركًا موضعه للجرح التالي..

وعندما ظننت أروى باقية معي للأبد.. رحلت هي الأخرى..

يلمس إبهامي اليمنى خاتم زواجي المستقر بموضعه بيدي اليسرى، اشتقت إليكِ يا "أروى"، وما للاشتياق نهاية..

أغلقتُ باب الشرفة المطلة على البحر، وبدأت في إعداد تلك الشقة الصغيرة لتصير صالحة للسكن في الفترة المقبلة..

الهواء ثقيل، ويغمر المكان برائحة خانقة، ولكن بدأ الهواء الآتي من باب الشرفة في إبعاد تلك الرائحة بشكل كبير..

بالطبع كانت الشقة عامرة بالتراب كمقبرة فرعونية، ترُى كم مرت من السنوات منذ أن أوى إليها جدي؟

باب خشبي عتيق، في بناية أكثر قِدمًا من الإسكندر الأكبر ذاته، يؤدي إلى شقة صغيرة للغاية، تكوم بداخلها ما يشبه الغرفة وردهة ضيقة، ثم دورة مياه جانبية وموضع يصلح لعمل كوب من الشاي بصعوبة بالغة.. هي مأوى رجل واحد لا أكثر بالفعل...

كم كنت رائعًا يا جدي...!

ذلك المكان الهادئ الصغير، البعيد عن أي أحياء مزدحمة أو جيران فضوليين.. كانت تلك صومعتك السرية في أوقات الأسى، وكم كثرت تلك الأوقات...

وضعت الساعة أمامي على مائدة بلاستيكية بجانب باب الغرفة، ونظرت إلى موضعي الجديد الذي سيصير كهفي الخاص.. سقف مرتفع، ونافذة جانبية مغلقة، بينما تطل الشرفة الضيقة على بحر هادئ يجذب الروح إليه.. فراش صغير ولكنه مريح..

ساعة حائط مربعة الشكل تحتل جزءاً من الجدار.. أراقب عقاربها المتوقفة عن العمل، وكأنها رمز واضح لمكان ابتعد عن قبضة الزمان بالفعل...

ولمْ ينسَ جدي إضفاء لمسته الخاصة من الجمال، فصنع رفًا خشبيًا احتوى بين جانبيه بعض من كتب التاريخ لا تزيد عن عشرة كتب على الأكثر، وعلى الحائط، صورة فوتوغرافية قديمة، عُلّقت بلا برواز...

اقتربت من الصورة لأتفحص أشخاصها، فإذا هم جدي وجدتي كاترينا ووالدي ووالدتي بينما انتفخ بطنها قليلًا...

ترقرقت الدموع في عيني لحظة، وسالت بعد لحظات.. قد تكون تلك الصورة الوحيدة التي جمعتني بهؤلاء الأربعة.. تلمست الصورة بأصابعي الجافة، فكأنني أتلمس وجوههم فعلًا..



أشياء جميلة كتلك لا يزول جمالها أبدًا بمرور الزمان.. بل يصقلها، ويزيد حسنها..

رحمك الله يا جدي في كل وقت وحين، وطّيب موضعك حيثما دُفنت، ورحمكم جميعًا يا من لم أسعد برؤيتكم...

***

تنبعث من ملابسي رائحة كريهة، فأنتبه لضرورة تبديلها.. أتَّجه نحو الخزانة الخشبية، فأرى أمامي ثيابًا معلقة امتلكها جدي يومًا من الأيام...

أتلمسُ نسيجَها، وأنزعُها برفق من موضعها.. في وقت سابق، كان من الصعب أن تليق تلك الملابس بحجمي، ولكن بفضل ما آل إليه حالي، توافقت الملابس مع جسدي توافقًا مدهشًا...

أرغب في حمام دافئ، عوضًا عن مطر السماء الذي ضنّ عليّ بحضوره.. دخلت إلى دورة المياه، أمسكت بصنبور الدش وأدرته بقوة، فسقطت قطرات تتابعت حتى بدأت المياه في الانهمار بعد فترة قصيرة...

رأيت مرآة الحائط وقد غطاها التراب فأحالها لوحًا مصمتًا.. أمسكتُ بقطعه قماشية مهترئة وجدتها بجوار الحوض، وبدأت في تنظيف المرآة...

رأيت وجهي يبدأ في الظهور تحت السطح الداكن.. فوجئت لحظات من هيئتي التي تحولت إليها خلال العامين السابقين.. كم تغيرت هيئتي وكم تبدل مكنوني!

حقًا إن التغير لا يحدث فجأة، لكنه كتلك الطبقة الترابية المتراكمة ببطء لا يُذكر..

فقط، بعد مرور الأعوام..

ستندهش بالفعل ممن تراه أمامك بالمرآة!

***





39

أسبوعان ونصف (ب.أ)

**

جالسًا وحدي بغرفتي الصغيرة بتلك المصحة الهادئة.. يبدو أن هؤلاء الأطباء قد يئسوا من علاجي بعد جلسة الساعات الخمس.. هم من طلبوا معرفة ما حدث، ولا ذنب لي في ردود أفعالهم العجيبة...

بعدما انتهيت من سرد قصتي، وأوضحت لهم جهلي التام بكيفية مقتل "أروى"، ظنوا بي ادعاء الكذب كعادة أغلب الجناة، فقرروا إعادتي لغرفتي والبدء بالجلسات العلاجية والمحاورات الشفهية يوميًا خلال فترة الخمسة والأربعين يومًا المقررة قانونيًا...



مرّ يومان بدون أن يحادثني أيّ منهم، ثم وجدت ذاك الطبيب العشريني يأتيني لغرفتي..

– ممكن اخد من وقتك دقيقة يا أستاذ أدهم؟

نظرت له في صمت.. يبدو الهدوء واضحًا في صوته، لا يهابني، ولكنه –يا للعجب– يحترمني.. أشرتُ إليه بيدي بمعنى أنه لا فارق عندي بين وجوده أو عدمه...

– أنا الدكتور عصام عبد الرؤوف..أو بالأصح لسه دكتور تحت التمرين.

لم أرغب في الرد على حديثه، ولكني وجدت لساني ينطق رغمًا عني..

– واضح عليك إنك لسه جديد..

ابتسم ابتسامة هادئة، وأكمل:

– والدي كان زميل قديم لدكتور جودت..ونصحني أتدرب هنا في المصحة عشان أكتسب خبرة..

أجبته ساخرًا:

– واسطة يعني؟

ضحك ضحكة قصيرة..



- تقدر تقول كده.. دا الطبيعي دلوقتي.

أومأت برأسي.. نعم يا فتى، أعلم ما تقول تمامًا، فقد شربتُ من نفس الكأس قبلك..

- أعتقد حضرتك عندك حوالي تلاتين سنة؟ يعني يادوبك الفرق بينا سنتين..

ممم.. فتى طيب، ولكن ليس كذلك تؤكل الكتف..

سحب بيده كرسيًا خشبيًا كان بجانب الغرفة، ثم وضعه أمامي، وجلس...

- ممكن ندردش سوا؟

- واللي فات دا كان إيه يا دكتور؟

ابتسم.. ثم نادى بصوت هادئ للممرض المنتظر بالردهة، وفور أن أتى للغرفة، سألني "عصام":

- تشرب إيه يا أستاذ أدهم؟

أجبته سريعًا وبصوت جاف:

- نسكافيه..

انبسطت أساريره قائلًا:

- جميييل.. مدمن كافين زيي!



ثم أشار للممرض..

– اتنين نسكافية والسكر بره يا عبده..

خرج الممرض بسرعة، بينما استدار "عصام" نحوي مرة أخرى..

غمغمت في هدوء:

– برافو عليك يا دكتور.. حركة فاشلة عشان تقرب مني..

تظاهر "عصام" بالضيق:

– ليه كده يا أستاذ أدهم؟ إنت مش مصدق إني بحب النسكافية؟ ومين يقدر يكره المشروب السحري دا.. أنا ساعات بخاف يحبسوني هنا في المصحة عشان أتعالج منه.

ابتسمت رغمًا عني، ولكني لم أسمح للابتسامة أن تتسع...

سألني وقد بدأ يدون بعض الكلمات بمفكرة صغيرة أخرجها من جيب بنطاله:

– بص يا أستاذ أدهم.. أنا مهتم بقصتك فعلًا، وبعيدًا عن حالتك العقلية، أنا هفترض إن الكلام اللي قلته دا حقيقي.. سيبك من رد فعل اللجنة الطبية، ويا ريت تحكي لي أنا عن اللي حصل، واعتبر نفسك بتدردش مع واحد صاحبك.. ممكن؟

أجبته في برود:



- أدردش؟ واضح إن الحالات اللي هنا مملة، فقررت تيجي تتسلى شوية بالحالة الممتعة دي؟

أجابني بحزم:

- لأ يا أستاذ أدهم.. حالتك مهمة فعلًا، وبقت قضية رأي عام خلاص.. المفروض كان مكانك دلوقتي في العباسية، لولا أن عمك بمكانته المعروفة قدر يجيبك هنا في المصحة الخاصة دي من غير ما الجرايد تعرف.. تخيل إنت وضعك عامل إزاي دلوقتي؟!

اعتدل في مجلسه وأكمل حديثه، بينما أنا تظاهرت بعدم الاهتمام..

- في فرصة كبيرة إنك تعيش، صحيح هتقضي فترة كبيرة هنا في المصحة عشان تتعالج، بس دا أحسن من تعليقة حبل المشنقة، ولا إيه؟"

أجبته غاضبًا:

- أتعالج من حاجة مش عندي؟ ولا اتعدم على حاجة معملتهاش؟ تصدق إن الاختيارين أجمل من بعض.. ريّح نفسك يا دكتور، وكمّل تدريبك على حالات تانية أحسن لك.

رد بصوت حاول أن يجعله هادئًا:



- السخرية مش هتفيدك يا أستاذ أدهم.. إنت قدامك أقل من أربعين يوم عشان تقريرك يطلع، ودا اللي هيحدّد نهايتك، سواء هنا ولا عند عشماوي.

ساد الصمت بعد كلمته الأخيرة، لم أجِبْهُ واكتفيتُ بالتنفس فقط.

عاد بظهره إلى الوراء وقد انتشى بانتصاره المؤقت، ثم أكمل:

- اتفضل كلمني اكتر عن حياتك مع مدام أروى -الله يرحمها-

كلما ذُكر اسمها على لسان أحدهم، أصابني توتر مفاجئ.. لماذا تنتهكون حرمة اسمها المقدس بألسنتكم اللعينة؟

"أروى" هي سيدتي.. ملكي أنا فقط، هي الطريق ونهايته.. هي كالقطعة المتبقية والتي برحيلها يظل حل لغز أحجيتي ممنوعًا من الوجود.

زفرة حارة خرجت من أعماق نفسي.. تساؤلات ذلك الطبيب الساذج ترغمني على العودة لأيام لن أنساها ولا أرغب في تذكرها...

كانت أيامنا الأولى كزوجين أفضل أيام حياتي....

لأسابيع قليلة انعزلت عن أحزاني الممتدة، واستمتعت برفقة "أروى" بأجمل نِعم الدنيا.. شعرت بقلق "أروى" الدفين فيما يخص حالتي النفسية، ولكن أفعالي وقتها أقنعتها بأني قد تخطيت أزمات العمل و إرهاقه المستمر...



أكلات "أروى" الشهية، التي ادهشتني شخصياً.. الطرقات التي طويناها معًا،الورود التي قطفتها من أجل وردتي اليانعة دائمًا.. الأغاني التي صدحت حولنا، وكل شروق شمس حضرناه معًا.. أتذكر كل تفصيلة مهما تكن تافهة أو صغيرة.. ضحكتها الخافتة، تورد وجنتيها بالأحمر الدافئ،عطرها الفواح الذي لا يُنسى، لمعان عينيها الزمرديتين، تعبيراتها الطفولية التي تباغتني في كل حين، وصوتها.. صوتها الهادئ كأم تروي لطفلها قصص ما قبل النوم...

أتمنى لو استمرت حياتنا على ذلك النهج، لم يكن ليصيبني الملل..

***



40

عامان (ب.أ)

**

بعدما انتهى الزفاف، وصرنا معًا بغرفتنا، ذقت مع "أروى" للمرة الأولى من كأس النشوة ما ذاقه كل العشاق قبلنا، وبينما كانت محتضنة ذراعي قبل ان نخلد للنوم، فاجأتني "أروى" بجملة زلزلت كياني..

– غريبة جدًّا إن الزمن ممكن يخلّي الواحد ينسى حاجات كتيرة.. من سنة كانت حادثة خالد الله يرحمه.

ساد الصمت لدقائق...



لم أتمكن من الرد، ثم هدأ تنفسها معلنًا بداية ولوجها لعالم النوم الغامض.. بينما ظللت محدقًا للفراغ بالسقف وفي حلقي غُصة تكوَّنت ولن تزول...

مثلما أُحدق الآن بسقف غرفتي الجديدة بشقة الإسكندرية.. أتخيَّل الشقوق التي رسمتها عوامل الزمن على ذلك السقف، وكأنها خريطة تنبئني بطريقي المجهول.. إلى أين مصيري؟ وكيف سيكون؟

تركني جدي وحيدًا بالصحراء، وبحوزتي حمل ثقيل للغاية، بداخلي تتنازع آلاف الرغبات الملحة والأفكار السوداء...

جزء يريد نسيان الحاضر بالانغماس في ماضيه الخاص، وجزء آخر يرغب في إكمال مسيرة جدي نحو الحقيقة، بينما يجذبني قلبي نحو نصفه المفقود.. أروى.. أريد أن أنظر في عينيها الخضراوين ولو لمرة أخيرة.. لن أحادثها، سأكتفي بالصمت كطالب مجتهد في حضرة أستاذته...

صار للماضي الجزء الأكبر من تفكيري، وها هو في طريقه ليستحوذ بشكل كامل على ذهني...

" مجيئي إلى الحياة كلف أمي حياتها، وكان ذلك بداية ما سأعرفه من مآس.."



قالها الفيلسوف السويري "جان جاك روسو"، فكأنه يصف حياتي بكل دقة...

ضَلَّ النومُ سبيله لفراشي منذ أن حدث ما حدث.. الأرق هو خليلي الوفي تلك الأيام، وكأني في جحيمي المشتعل بأطلال جسدي المُحطَّم..

ليس بالضرورة أن يموت المرء ويُحاسَب كي يُرمَى بأعماق الجحيم، بل يكفيك أن تظل حيًّا، بينما اصطحب الموت كل أحبابك برحلته الأبدية...

وكالأخوات الثلاث ناسجات الأقدار والمصائر بأساطير الإغريق، تحوطني من كل حدب إخواني الثلاثة ..

الألم، الوحدة والافتقاد ...

في صباح اليوم التالي، بدأت يومي بتجهيز الساعة لتبدأ عملية شحنها الممتدة لتسعة أيام، منتظرًا أن يختار عقلي خلال تلك الفترة شاطئًا يرسو على ضفافه...

أي زمان أهرب إليه؟ وأي كذبة تنتظر مني زيارتها؟ صدقت يا "نيتشه" عندما قلتها.. "آه أيتها الحقيقة يا أكبر كذبة في التاريخ!.."

أشعرُ بالجوع ينهش أمعائي الخاوية، اضطررتُ للنزول لشراء بعض الجبن والخبز وكيسًا من الفول...



بدأت في إعداد الفطور معتمدًا على الطاولة الصغيرة المركونة بما يشبه المطبخ.. لماذا تنتابني خواطر الماضي الآن؟

أرى جدي ينهرني مازحًا:

- الفول هيبرد!! سيبك من الزمن دلوقتي وركز في الأكل اللي قدامك.

وأراني واقفًا خلف "أروى" بمطبخ شقة جدي، في صباح أول يوم يجمعنا بعد الزفاف.. احتضنها برفق، وأتنفس عبق شعرها الحريري، بينما اصطنعت انشغالها عني بتقطيعها لقطعة من الطماطم وإعدادها لطبق الفطور..

أداعبها بقولي:

- ريحة الفول وهي طالعة وسط شعرك تجنن.

تضحك فجأة وتلتف لتنظر لي باسمة، تتلاقى أعيننا وأغرق في الجوهرتين الخضراوين، فترد لي دعابتي..

- طب حاسب على نفسك، السكينة دي حامية والسلاح ممكن يطول يا كابتن.

***



توقفت أصابعي عن تقليب الطعام.. شعرت برغبة عابرة في تحطيم الطبق والبقاء جائعًا إلى أن ألقى نحبي وأجتمع بأحبابي...

تمتمتُ في سري مستغفرًا لله عن خواطري السوداء،وما أكثرها...

أخذت فطوري القليل إلى الغرفة، انفتح باب الشرفة، فرأيت البحر أمامي رائقًا، لا يأبه بما يحدث حوله...

نظرت للكتب القليلة الموضوعة أمامي على الرف، تشترك جميعها في انتمائها للتاريخ الإسلامي العربي الذي عشقه جدي، وكان سببًا في هلاكه بالنهاية...

على عكس جدي؛ كرهت العرب وتاريخهم، ارتبطت وقائعهم عندي بالدم والظلم والخيانة والضعف.. عن أي عودة يتحدثون؟

إن أرادوا استعادة أمجادهم القديمة بالفعل، فليقوموا بما يستحق المجد أولًا.. ذهب ريحهم وتشتت جمعهم، وطغوا فيما بينهم.. سحقًا لهم!

« يجد الناظر بعين واقعية محايدة أن تحريف التاريخ قصدًا أو عفويًا يرتبط كثيرًا بالمنطقة العربية.. فظروف الزمان والمكان تقدم يد العون بشكل كبير لتلك الأفعال..

الأطراف المنتصرة في النزاعات والانفصالات تقوم دائمًا بكتابة التاريخ كما يحلو لها، وتحرص دائمًا على عدم توفير وسائل التحقق

من صحة المكتوب، فتنشر الملهيات وتحض الإفساد والعبث على زرع بذورهم السوداء في عقول الناس...

دائمًا يعارضون بما يسمى "زعزعة الثوابت التاريخية"، وتغافلوا عن الثوابت الإنسانية التي هي أحق وأجدر بالوجود...

هنيئًا لهم بانتصاراتهم المزيفة، وشعاراتهم الجوفاء...





41

ثلاثة أسابيع (ب.أ)

***

كيف ماتت "أروى"؟

ألقى الدكتور "عصام" سؤاله كقنبلة ساحقة في مرماي، وتركني وحيدًا أصارع أحداث الإجابة...

ثلاث أسابيع مرَّت على ذلك اليوم الأليم، ولن تفارق تفاصيله ذهني أبدًا...

أتذكر عودتي للمنزل مرهقًا حاملًا أكياسًا مليئة بمختلف الأطعمة التي طلبتها "أروى"، وأتطلع لرؤيتها كي تمحو من ذاكرتي منغصات اليوم...



تفاجئني سيارة الشرطة أسفل بنايتنا القديمة، الشارع الجانبي الضيق صار مكتظًا بالمارة المجتمعين حول منزلنا...

أُسرع الخطى نحو المنزل، بينما تتشابك الأذرع والأجساد أمامي، فأتخطاها بقدر ما أوتيت من قوة وقتها.. تنتهي درجات السلم في ثوانٍ، لأتسمر أمام باب الشقة الذي كان مفتوحًا على مصراعيه...

الجميع ينظر لي بعيون ثاقبة، تداخلت الأصوات فلم أُميِّز منها شيئًا، والستار البشري الكثيف يتراح ببطء، ليكشف عن مركز الاهتمام.. "أروى"!

بردائها المنزلي ذي اللون الوردي الهادئ، افترشت جثتها أرضية الردهة، بينما انساب شعرها الناعم حولها كغلالة حريرية لملكة نائمة، وبأسفله انتشرت بقعه حمراء قانية أحاطت برأسها كهالة القديسين..

ارتميتُ بجانبها محاولًا احتضانها،بينما منعني رجال الشرطة الواقفون بجانبنا، ومع ضياع كلماتي، بدأت كلماتهم تظهر بردهات عقلي على استحياء..

- البقاء لله يا أستاذ.. ممنوع لمس الجثة علشان البصمات.. التحريات لسه هتبدأ وهنعرف مين الجاني.. اتفضل معانا دلوقتي عشان محتاجين ناخد منك شوية معلومات.



ارتخت ساقي رغمًا عني، أفقدُ الوعي، وأستعيده مئات المرات في الدقيقة الواحدة، بينما غيمة حالكة السواد تتكاثف بذهني...

خرجت محمولًا على أكتاف الجنود، ليس كالمنتصرين بالحروب، بل كضحايا الكوارث المُفجعة.. مررنا بصعوبة بين الجيران المتكالبين علينا، بالرغم من تحذيرات الضباط وتنبيهات المخبرين والعسكر.. الفضول قتل قططًا كثيرة، وما يزال مستمرًا في القتل...

يقاطع "عصام" سيل الذكريات متمتمًا:

– أنا مقدر موقفك يا أستاذ أدهم، وحاسس بمدى الخسارة اللي حصلتلك..

بادرته بسؤالي بلهجة جافة:

– إنت متجوز؟

أجابني مُحرَجًا:

– لأ.. بس..

– مفيش بس.. انسى انك تحس بمدى خسارتي، وياريت نغير الموضوع، كفاية انك خليتني افتكر اللي حصل تاني.

– أنا أسف يا أستاذ أدهم، وعارف إن اليوم دا اضطريت تحكيه اكتر من مرة للبوليس ولجنة الدكاترة.. بس كنت مستني تفاصيل أكتر ممكن تكون نسيتها وسط دوشة الأحداث وقتها.



صمتُّ وهلةً، ثم هززت رأسي نافيًا لوجود أي تفاصيل أخرى...

أومأ لي برأسه، ثم قام مبتعدًا وقد بدت خيبة الأمل على وجهه..

– هاجيلك تاني قريب يا أستاذ أدهم...

أشحتُ بوجهي عنه بينما باب الغرفة ينغلق وراءه، وعدتُ لفراشي متأملًا للحائط، متذكرًا بقية تفاصيل ذلك اليوم المشئوم...

بالتأكيد هناك تفاصيل أخرى لم أذكرها...

لماذا لم أخبرهم بمن لمحتها مندسةً بين الجيران؟

ساحرة القيروان التي ارتكنتْ على درابزين السلم بينما ترتسم الفرحة على وجهها للمرة الأولى، وتشعُّ عيناها بالشماتة البالغة!

***



يومان (ب . أ)

***

- اسمك؟

- أدهم عبد الرحمن

- سنك؟

- تلاتين سنة

- كنت فين النهارده وقت الجريمة ما حصلت؟

- كنت في مشاوير بره البيت، ورجعت لقيت البوليس موجود.

- الجريمة حصلت قبل وصولك بتلات ساعات، وفي شهود عيان بلغوا انهم سمعوا صوت يشبه صوتك وقتها.



- أكيد محصلش، لأني كنت برة البيت طول اليوم.

- هل كان فيه أي خلافات بينك وبين المجني عليها مدام أروى عبد المجيد؟

- خالص.. إحنا لسه متجوزين من حوالي سنة يا فندم، ومفيش أي مشاكل بيننا.

- هل الشقة اللي حصلت فيها الجريمة هي محل إقامتك؟

- آه.

- إزاي؟ إذا كانت البطاقة مكتوب فيها إنك ساكن في مدينة نصر؟

- كنت ساكن في شقتي هناك زمان، بس جيت هنا في شقة جدي الله يرحمه.

سمعنا صوت طرقات على الباب، ثم دلف إلينا رجل بملابس رسمية حاملًا حقيبته بيده قائلًا:

- أنا المحامي منتصر حلمي.. تم توكيلي من السيد "كمال الحلواني" للدفاع عن السيد "أدهم عبد الرحمن الحلواني".

نظر الضابط المسئول إلى بطاقة المحامي ثم سمح له بالجلوس بجانبي.



استكملوا التحقيق، وقاطعنا المحامي أكثر من مرة، بدا عليه الحنكة والدهاء في تبريراته وملاحظاته، وتطرق الحديث إلى جدي، فلم أدرِ بنفسي إلا ولساني يسرد كل ما حدث بخصوص الساعة ورحلاتي مع جدي...

بدأ التوتر يظهر على خلجات وجوه الجميع من حولي، واندهش أغلبهم مما أقول حتى توقّف كاتب المحضر عن التدوين...

لم أكترث بهم، بينما استمر سردي للأحداث.. كنتُ منهارًا والضغوط تنهال عليّ، وصدمة وفاة "أروى" أضاعت كل ما تبقى بعقلي من منطق.. مطارق من الصلب تطحن رأسي الذي تكدست به الأحداث والمصائب، فقررت إخراج كل ما بجعبتي.. بلا خوف، ولا مواراة...

- أطلب من سيادتكم رسميًّا تحويل موكلي إلى لجنة طبية للكشف على قواه العقلية.

قالها المحامي بنشوة غير طبيعية، بينما ارتسم الملل، والامتعاض على وجه الضابط...

تم تحويلي للمصحة بالفعل، وكان لعمي "كمال" دور في ذلك كما قيل لي.. نقل المحامي أقوالي لعمي بكل سرور، موضحًا أن ادّعائي للجنون هي فكرة عبقرية قد تنقذني من حبل المشنقة...



لم يكترث عمي بحالتي، ولم يرغب في التأكد من صحة قصتي أو على الأقل صحة ادعائي بالفعل...

لقد أراد فقط أن يحافظ على سمعته ونصوع صفحته أمام المجتمع، ويكفيه الويلات الآتية بسبب انتشار خبر الجريمة التي تورط بها ابن اخيه كونه مشتبهًا رئيسيًّا حتى الآن...

استقبلتني اللجنة وحدث ما حدث، وبدأت زيارات الدكتور "عصام" في التتابُع، يجالسني ساعتين، أسرد فيهما جوانب من حياتي الشخصية،ويسألني عن هواجسي ونوازعي الداخلية.. يحاول الوصول لمناطقي المجهولة بذاتي، لعل ذلك كان سببًا في علاجي من دائي العجيب.. يا له من مسكين!

انتهت تدخلات عمي بظهور التقرير النهائي بعد نهاية فترة الخمسة والأربعين يومًا المحددة لفحص حالتي العقلية...

أفاد التقرير بوجود عاهة بعقلي توقف محاكمتي حتى أعود إلى رشدي، وسأظل بالمصحة طوال فترة علاجي ثم يصدر القرار بعدها.. إلخ... إلخ.

إذن فهي الأبدية.. أدركت خطة عمي بإدخالي لتلك المصحة، لكي أستقرَّ بها حتى مماتي، فتُدفن فيها مشكلاته بغلق تلك الصفحة نهائيًّا.

ليس بالأمر المهم، فلم أرغب في البداية أن تستمر علاقتي بعمي "كمال"، ويكفيني ما أتاني بسببه طوال حياتي، ربما كانت حسنته الوحيدة هي إيصالي لمن أكملت روحي الناقصة.. ثم انتزعتها مني ورحلت بعد الاكتمال...

***





شهران (ب.أ)

***

لا حل أمامي إلا موائمة الظروف...

اضطررتُ للخضوع لقوانين المصحة طوال فترة وجودي بين جدرانها المصمتة، أو فلنقل طوال ما تبقى من حياتي الفانية...

تتكوّن المصحة من حديقة خضراء مبهجة تحيط بمبنى متسع الأبعاد، للمبنى طابقان: طابق أرضي يحتوي مكاتب العمال والأطباء وكافيتريا صغيرة يحتسي بها الرواد والعمال ما يرغبون فيه من مشروبات، ثم ردهة قصيرة تُفضي إلى غرف المرضى القادمين لقضاء فترات النقاهة، ثم ردهة طويلة تصل لمنطقة نهاية الطابق – على سبيل الإقصاء خوفًا من أضرارهم– حيث أُقيمت غرف القادمين للعلاج من أمراض عقلية ونفسية تعكر صفو حياتهم، وكنتُ من الضيوف



النادرين القادمين بسبب جريمة شديدة الخطورة مثل جريمتي، فكان ذلك سببًا في المعاملة الخاصة التي نلتها بكل استحقاق...

أما الطابق العلوي فهو -كالعادة- للمدير وكبار الأطباء، فكيف يستوي العقلاء بمن فقدوا أبراج عقولهم؟ وكيف يتساوى من يملك بمن لا يملك؟

لم أسعَ إلى عقد صداقات مع باقي النزلاء، فلم يكن مسموحًا لي بالاحتكاك بهم كثيرًا.. حمايةً لهم مني، أو العكس.. لا أعلم.

أما العمال والممرضون فقد كانوا مجرد جماعة من البائسين الساعين للرزق، لا يكترثون بعقول المرضى أو حالاتهم النفسية.. يفعلون ما يُلزِمُهم به رئيسهم بالعمل ولا شيء غير ذلك...

يعاملني بعضهم بالحسنى، ويتجاهلني البعض الآخر، بينما يخصني عامل الغرف القريبة مني ببعض من المزاح الثقيل، الذي يتطور أحيانًا لمقت واستهزاء غير طبيعيين.

يبدو أن الأفق يحمل في طياته أيامًا عامرة بملل لا نهائي!

***



42

عامان (ب.أ)

***

صارت غرفتي الجديدة موضع تأملي المستمر.. اندمج تمامًا بتفاصيل الحائط وثنايا الأثاث أمامي، تنقضي الساعات بينما أتسلى بملاحظة الشروخ، والثقوب الدقيقة المتناثرة بأسطحهم،بينما ينسجون معًا دوامات لا نهائية تجذبني لأعماقها..

الزمن دوامة أيضًا...

بل هو متاهة، يلقينا القدر في إحدى أروقتها، ثم يتركنا تحت رحمة ما نلاقيه بين جنبات تلك المتاهة الأبدية..

انمحت الحدود بين الأزمنة، وصار الماضي والحاضر والمستقبل كيانًا مشوهًا بلا أطراف واضحة..



وبرغم محاولاتي مرارًا لدفن الماضي في أعماق النسيان، إلا أنه دائمًا يجد طريق العودة إلى النور.. الماضي لاعب مراوغ لا يمكنك هزيمته بسهولة..

جذبتُ المجلد الذي احتوى مذكرات جدي من إحدى جيوب حقيبتي.. أتلمس غلافه السميك ذا الرسم الهندسي العجيب.. الآن لم أندهش من معني تلك الدائرة ذات الخطين الخارجين من نقطة مركزها في زاوية شبه منفرجة.. إنها ساعة!

بدأت أوراق أخرى بالمجلد في التثني والاهتراء.. يومًا ما، أمسك جدي بتلك الأوراق، ودوَّن بها ما رآه وسمعه بعد أن كانت صفحات ناصعة.. يا الله!

أروع النصوص المكتوبة هي ما فُقدت سهوًا واستحالت إعادتها.. فهل الفقد هو سر روعتها؟ أيلزمنا أن نفتقد الشيء كي ندرك قيمته؟ وإن بقيت تلك النصوص، ورحل عنا صانعُها.. فهل تستمر النصوص على حالتها، أم تكتسب هيبة مروعة كتلك الأوراق المصفرة؟

أعبر الصفحات الأولى متذكّرًا ما تسردها من وقائع.. يتوقف ترحالي عند المنتصف، فيواجهني خطُّ جدي المُنمَّق الهادئ، وكأنه ديوان شعري حالم.. أتدرك تلك الكلمات ما احتوته من أهوال؟ أتدرك قيمتها إن نُشرت على الملأ بين رؤوس القوم الغافلين؟

في بداية الصفحة وبعد ذِكر تاريخ الواقعة...



(تعدّدت رحلاتي إلى الماضي، فأدركت حقيقةً واحدةً تامة الوضوح.. الإنسان هو الإنسان في كل زمان، ومكان.. لو أنني كنتُ نبيًّا مرسلًا من عند الله لهداية القوم، لفشلت في نشر رسالتي منذ اليوم الأول، وأحمد الله على إدراكي المسبق لخطورة تغيير الماضي.. فلا توعية تصلح لنا، ولا أحد يأخذ النصيحة على محمل الجد.

تنوعت الأحداث والمصير واحد.

جهلنا اليوم ليس وليد اللحظة، بل هو إرث تتوارثه الأجيال منذ قديم زماننا، وبئس المتحكمين في أحوالنا، رعاة الفساد والإفساد، زارعي الخرافة في عقول العوام...

رأيت الأمم في أوج لحظات مجدها، وكذلك انحدارها لأسفل السافلين، فما شعرت بالبون الواضح بينهما.. فنحن إن انتصرنا تجبّرنا، وتعمينا غطرستنا، فتزداد تعطشًا لمزيد من السلطة والإفساد..

بينما إن عادت هزائمنا للظهور، استضعفنا أنفسنا وتغاضينا عن الحق، فيسود الفساد أرضنا، ويتعامى الجميع عن الحقيقة الظاهرة لكل الأعين...

الفساد أساس وجودنا جميعًا...

احتجت لأن استبدل الناس من حولي، استبدل هذا الزمان والمكان، وظننت أن بالماضي مجدًا فقدناه اليوم.



ولكني كنت غرًّا شديد السذاجة عندما قررت الهروب من الحاضر لماضي أفضل، فما وجدت إلا القبح والسوء بكل مكان...

أتلك هي طبيعتنا المخبوءة بذواتنا؟ وفترات الجمال ما كانت إلا أخطاء يدرك التاريخ وجودها بعد حين، فيعود لأصله الفاسد مرة أخرى؟

أُشفق على من حولي.. أعماهم جهلهم، فاستكانت نفوسهم واطمأنَّت لما تراه أمامها من وقائع حافلة بانتصارات يجهلون حقيقتها.. ضميري يؤنبني على صمتي.. الساكت عن الحق شيطان أخرس، وبما أعلمه وأُخفيه بصدري، قد صرت كبير الأبالسة!

ولكن الناس في أيامنا تلك، يسعدون بالزيف، واعتادت قلوبهم ذلك، فصاروا مصدرًا له إن غاب قليلًا عنهم.. أرى أنهم لا يستحقون إدراك الحقيقة، فهم قوم إن تجسد الحق أمامهم، أنكروه..

للأسف، أخطأ الإمام "محمد عبده" عندما قال: "الباطل لا يصير حقًّا بمرور الزمن"...

كم ينتابني الأسى كلما عبرت لزمن مغاير لزمننا، فأرى اختلاف حالات الزمان بينما الحال واحد في كل حال!

أكنا ضحايا لحكامنا المفرّطين في أرضنا المحتلة أم ضحايا لصنائع نفوسنا المعتلة؟



أكتب كلماتي هذه، بينما يرنو نظري نحو مكتبتي الأثيرة.. شريكة ما تبقى من الحياة إلى أن يشاء الله ان يقبض روحي في موعدها، وبالرف الثالث من المكتبة يرقد كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للـ"المقريزي".. ارتبط ذلك الكتاب بفكري، لما احتواه من أوصاف بالغة الدقة..

ففي باب "أخلاق أهل مصر"، يصف "المقريزي" أهل القاهرة وأغلب عموم مصر في العصر المملوكي وقتها، فيقول:

"وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستمالة والتنقل من شيء إلى شيء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس، وليست هذه الشرور عامة فيهم، فمنهم من خصَّه الله بالفضل وحُسن الخلق وبرَّأه من الشرور"...

هل امتلك المقريزي القدرة على السفر لحاضرنا، مثلما امتلكتُ أنا العودة إلى حاضره؟ أم كان مدركًا لأحوالنا، ومتيقنًا من حقيقة عدم تحولنا عما صرنا إليه للأبد؟؟

كتب المقريزي تلك الأوصاف بالقرن الخامس عشر الميلادي، بفترة العصر المملوكي، حيث ساد الظلم والاحتكار وتسلُّط الجبارين على عوام الشعب..



كانت رحلتي للعصر المملوكي أولى خطواتي نحو إدراك فظاعة أحوالنا، وبها ظهر لي سبب ما نحن فيه واضحًا للغاية، فمن الطبيعي أن يولد الذل وتنمو الاستكانة في كل بيئة مُهيَّئة لذلك..

فرض الحكام ضرائبهم الباهظة، لإعداد الجيوش وملء خزائن الدولة، فما أفلحت الجيوش في إيقاف الأعداء، ولا انتعشت الدولة بما ملأ خزائنها...

ويأتي التاريخ فيسجل ما حدث، ويشهد على ضياع هيبة المماليك وسطوتهم كغيرهم من الطغاة الفاسدين في كل زمان ومكان.. مهما يختبئ التاريخ في دفوف الكتب، سيظل مكشوفًا، وما يظنه الدهاة أنه مستور في صفحات النسيان، فمن السهل هتك ستره بالعين الفاحصة الراغبة في الوصول..

والمثير لدهشتي وقتها، برغم ما يقاسيه الجميع، فقيرًا كان أو موسرًا، فالشائع كان الخنوع، والسعي لنيل رضا السلاطين.. أهي الطبيعة الفطرية التي تحثُّ على اتقاء شرور الأقوياء، والخضوع للكلمة العليا، أملًا في البقاء حيًّا لعدة أيام إضافية؟

المطلوب أكثر من المتاح، والسرقة شاعت في الأرجاء، بينما الألسن تلهج بالدعاء في المساجد لولاة الأمر.. أليس كان الأصح أن يتوجهوا بدعائهم لمن بيده أمور الكون؟ أم كانت جيناتنا القديمة هي المتحكم بنا، فنرى بسببها حكامنا ظلالًا للإله على الأرض؟



أرغب في الصراخ، فلا أجد صوتًا.. أمسك بقلمي وأُدوِّن صرخاتي.. أكتب إذا أردت الصراخ، أكتب إذا أردت الكلام.. الأوراق تسمعني، بينما يسد البشر آذانهم عن صوت الحقيقة..

ضجّ عقلي بتلك الأسئلة المتشابكة.. فلا نهاية لها ولا أول، وإجابتها معروفة، ينقصها فقط لسان لينطق بها على الملأ...))

أغلقت الصفحات الصفراوات بزفرة احتوت نِتاج ما قرأته.. أقنعني جدي بكل كلمة من كلماته.. كتبها في تاريخ يدنو من يومنا هذا بسنوات قلائل، وبينما أقرؤها حاليًا، لم أجد تفاوتًا يُذكر، ولن أجد غدًا ولا بعد غد، ولا بعد عشرين عامًا حتى...

كره جدي قُبح الحاضر فهرب، إلى الماضي بحثًا عن جمال زائل.. ما الحل الآن إذا تساوت الكفتان؟ أين المفر؟

تركت المذكرات بجانب الفراش، ومددت ساقي قليلًا إلى الأمام.. أشعر ببعض من الراحة تنتاب جسدي، ولكن عقلي ماكينة لا تكف عن الدوران.. أحاول أن أمنح نفسي قليلًا من السكينة، وذهني عاصف كمحيط هائج في ليلة معتمة...

أخيرًا قررت عيوني أن تنغلق، بعدما لمحت سطرًا مدونًا على الجريدة القديمة الملقاة بجوار الفراش..

"الفساد له ناس عارفينه وعارفهم.. إن ماتت الناس يقعد لخلايفهم".. جلال عامر



صحراء مترامية الأطراف، رمال على مدى بصري، الليل مظلم والبرد ضارب بالأنحاء، وعلى مقربة مني حطب مشتعل، أوقده شخص ما يتدثر بالأسود، جاذبًا ما أمكنه من دفء بذلك الطقس المريع...

اقتربت ببطء، بدون إدراك لماهية الجالس نحوي... أشير إليه بيدي، فيجيبني بذراع نحيلة تطلب مني الجلوس أمامه، وعلى بساط صغير تناثرت أحجار وأصداف بشكل عشوائي...

افترشت الرمال الباردة بينما الخوف يضيف لجسدي رعشات بخلاف ما فعله الريح.. المتدثر يرمقني بعيون عسلية دكناء، وبرغم الظلام، أراهم واضحين أمامي كعيون البوم...

شعرت بدوار بسيط بشكل مفاجئ، بينما بدأت همسات خافتة في الخروج من بين طيات دثار ذلك الشخص.. بدأت رأسه في الاهتزاز بشكل هادئ، وبوتيرة ثابتة كبندول ساعة عتيقة...

تاه عقلي لدقائق.. أكان ذلك تنويمًا مغناطيسيًّا؟ ولكنني استفقتُ فجأة بعدما لمعت قطعة ذهبية في وجه جليسي، بعدما انزاح جزء من اللِّثام نتيجة اهتزاز رأسه..

فزعتُ وهببتُ واقفًا، بينما اللِّثام يسقط كاملًا عن وجهه.. بل وجهها.. لقد كانت ساحرة القيروان مرة أخرى!!



- إنتِ عاوزة إيه منّي؟ سيبيني في حالي.

نظراها ثابتة نحوي، وكعادها.. صامتة بلا أي أفعال أو أقوال، ولكنها تثير في نفسي رهبة أعظم من ألف ألف أسد شديد الافتراس.

ارتميت على الرمال أمامها، مُحنيًا ظهري للأمام كمن ينتظر نحر رقبته، وبدأت دموع حارة في الانسياب على خدّي.

- جايه ورايا في كل مكان ليه؟

بدأت همهماها في الارتفاع، حتى صارت صوتًا واضحًا يدوي في الصحراء رغم هدوئه.

- ما أنا من جاءت إليك.. بل أنت الآتِي قريبًا.

ثم أشارت بإصبعها الشبيهة بمخلب النسر...

تفتحت عيناي على مشهد الغرفة مرة أخرى، بينما العرق يغمرني كقط غارق ببركة ماء.. الرياح الباردة هب عبر النافذة الصغيرة، فأُهرع إليها لإغلاقها..

ثم أكملت ليلتي محدقًا بسقف الغرفة.. غير مدرك لما أراه، وغير قادر بالفعل على مجرد التفكير فيه...



43

شهر (ب.أ)

***

اليوم كما أخبرني عامل المصحة قد اكتمل الشهر الأول منذ أن رحلت "أروى"...

ثلاثون يومًا قد مرت كأيامنا المعتادة...

لم يأبه الوقت بمصيبتي، ودام استمرار الساعات في الدوران بوتيرتها المعهودة.. هل ينوي الدهر مفاجأتي بمروره بتلك السهولة؟ فينسيني "أروى" ويحيل رحيلها لذكرى ما حدثت في أحد أوقات حياتي؟



جاءني الطبيب "عصام" لغرفتي في موعده شبه اليومي مبتسمًا، منتظرًا أن أبادله الابتسام، فلم أفعل..

جلس كعادته هادئًا.. يرمقني بصمت، ثم استهلّ حديثه قائلًا:

– تخيل أني طلبت أكون طبيبك المعالج رسميًّا.. حالتك فعلًا مثيرة للاهتمام.

– مش عارف أقولك شكرًا ولا اسكت..

– بداية كويسة على الأقل إنك اتكلمت.. الممرضين هنا بيشتكوا لي إنك دايمًا ساكت، وغالبًا مش بتكلم حد، ولو حصل بيبقى وقت جلساتنا بس.. دا شيء يسعدني إني أكون الطرف الوحيد اللي بتكلمه هنا في المصحة.

وددتُ لو أنفجرُ في وجهه، فأُفصح له عن مكنون صدري بكل صراحة...

المرضى هنا إما مرفهون للغاية، أو واهمون للغاية، فتعتمل بداخلهم الوساوس بأن مرضًا نفسيًّا أو إرهاقًا قد أصابهم بلعنته، وأنا لا أُطيق صبرًا على تلك الصفتين...

أما الممرضون والعمال، فلا رغبة لهم في الحديث من الأساس، وأي حديث قد ينشأ بيني وبينهم؟ هل تشاركنا في شيء معًا بخلاف اختناقنا بين تلك الجدران المصمتة؟



شحّت الاختيارات أمامي، فلا سبيل لتحريك لساني بما أحتويه من كلمات إلا لك وحدك، ومن حُسن حظي أنك ذو شخصية مقبولة نسبيًّا، فلست إمعة كسائر الأطباء الشبان، ولست متعجرفًا كهؤلاء الأطباء كبار السن، الأجدر بالبقاء بمنازلهم وملازمة عللهم النفسية وعجرفتهم العظمى..

– تحب ندردش سوا عن إيه النهارده؟

ما زال مُصرًّا على تسمية جلساتنا بذلك اللفظ السخيف.. يا له من بائس بالفعل!

– طب إيه رأيك هنبدأ بشيء جميل جدًّا.. عارف النهارده يبقى كام في الشهر؟

سؤال غبي آخر.. فلا نتائج ولا ساعات بالغرفة، ولولا النافذة لما أدركت تعاقُب الليل والنهار..

– أنا هقولك.. النهارده عيد ميلادك يا أستاذ أدهم..

ما زلتُ صامتًا، بينما تضاعفت آلامي.. مناسبتان في يوم واحد!

– فاكر كنت بتعمل إيه في عيد ميلادك زمان يا أستاذ أدهم؟

أتحداك أن تتفوه بكلمة أخرى أيها الطبيب السمج.. عندها سوف أشج رأسك بالحائط، وأستمتع بالعبث بمحتويات عقلك التافه!

وجدت لساني ينطق بهدوء بالغ:



- أنا احتفلت بعيد ميلادي كتير.. لكن مقدرش أنسى منهم تلات مرات بالظبط..

اعتدل الطبيب "عصام" بمقعده، وقد شعر ببداية خيط قد يتمكن من إمساكه.. أومأ برأسه لي كي أسترسل بحديثي، بينما تخطُّ يداه بعض الكلمات بمذكرته الصغيرة...

- أول مرة كانت في أول سنة ليا مع جدي.. يومها كان جدي مش عارف يهديني إيه بالمناسبة دي، فاتصرف بشكل غريب جدًّا.. أخدني في بداية اليوم لمكان مخيف، مليان مباني صغيرة، لما كبرت عرفت إنها كانت المقابر، وقفنا قدام قبر أمي -رحمها الله-، وعمري ما نسيت إللي قاله يومها...

بعد ما بكى ودموعه أغرقت خده، لقيته بيهمس لشاهد القبر:

- أدهم رجع البيت يا زينب.. ابنك خلاص هيفضل في حضني، ومحدش هيبعده عننا تاني، ولولا أنه مينفعش، كنت خليته يشوفك زي مانا بشوفك يا حبيبتي.

سألني "عصام":

- كان بيشوفها إزاي؟

أجبته:

- كان يقصد وقتها رحلاته للماضي لما كان بيشوفهم.



تململ "عصام" قليلًا ثم أكمل تدوينه في المذكرة.. ظهر عليه عدم الاقتناع بقصة آلة الزمن حتى الآن...

لم أهتم برد فعله، وأكملت السرد متذكرًا ما كان..

– وقتها أنا مكنتش فاهم معنى كلامه، ولما جيت اسأله، طبطب على راسي وأخدني بعدها اشترى لي ألعاب، وكتب أطفال كتيرة جدًّا.. نسيت مؤقتًا موضوع المقابر دا، بس فضل اليوم دا ثابت في دماغي لغاية دلوقتي...

أما تاني مرة احتفل بيها وعمري ما انساها، كانت آخر مرة ليا مع جدي قبل ما عمي ياخدني منه...

حسيت وقتها إن جدي كان عارف إني همشي، يومها مكانش مركز، وكان قلقان، ووقت ما اداني هديتي، كأنها كانت هدية الوداع فعلًا.. مفرحتش أوي في المرة دي، بس كان يوم صعب إنه يتنسي.

انتهيتُ من كلامي وعدت لصمتي..هز "عصام" رأسه متعجبًا..

– والمرة التالتة؟

***

اجتمع زملائي بالمحطة جميعًا بمكتبي، وتتقدمهم "أروى" ليفاجئوني بعيد ميلادي...



أشاعت "أروى" كعادتها جوًا من البهجة بكل مكان تلمسه قدماها، واكتشفتُ بعد نهاية هذا اليوم، أن "أروى" كانت السبب الأكبر في لم شمل الجميع، وتوزيع الأدوار بعناية شديدة، بخلاف التكتم على تفاصيل ذلك الحفل المبهج لمدة أسبوعين سبقا يوم عيد الميلاد...

– نفسي كل يوم يبقى عيد ميلادك،عشان أفضل شايفة ضحكتك دي قدامي.

– كفاية إنك موجودة قدامي.. دا بيمنع عني أي زعل.

– طب افرض إني مش موجودة قدامك.. هتبص في صورتي على الموبايل يعني؟

– وأنا أبص في الموبايل ليه وانتِ في بالي دايمًا؟

تورّدت وجنتاها، وانتعشت كوردة تنسمت عبير الصباح.. فأزهرت وتفتحت، وأمسكت بيدي لتجذبني نحو النافذة، فنطالع معًا الشارع الواسع الممتد إلى ما لا نهاية، بينما تجاورت السيارات في ازدحام شديد، فاحمرت مصابيحها، وعلا صوت نفيرها..

– عارف يا أدهم.. أنا مش خايفة من أي حاجة هتحصل طول ما انت معايا.

قالتها "أروى" بنبرة جادة أثارت قلقي..

استدرتُ نحوها، وتلاقت عيناي بعينيها الخضراوين..

- "مالك يا أروى؟ إيه الجو دا؟ماحنا كنا لسه فرحانين من شوية؟"

ابتسمت "أروى" ولم ترد، ولكنها أراحت كفها على يدي، واحتضنت ذراعي بذراعها...

***





44

عامان، أسبوعان (ب.أ)

***

أنا عين الضرير، ولسان الأبكم...

أتنفّس ولست بحيّ...

أكون، بلا دافع يؤهلني للوجود...

يقتحم عزلتي صوت مهيب.. أكان ذلك الرعد الذي يأتيني أثره عبر النافذة؟

أُهرع للشرفة فأجد السماء الغائمة وقد بدأت في الاحتفال.. لقد جاءني المطر الذي رغبت فيه طويلًا.. ظللت بالشرفة، تاركًا المجال لهدية السماء تعزل عن روحي ما التصق بها من أدران...



لم أكتف بتلك اللمسات.. ارتديتُ ملابسي وقررتُ النزول للشارع للمرة الأولى منذ آخر مرة ابتعتُ فيها ما يلزم للأكل..

الساعة تعدت منتصف الليل بكثير، الجميع نيام في بيوهم هانئين، وكلب أجرب بائس يئنُّ متوريًا أسفل أنقاض منزل ما.. لا بأس يا صديقي، فلست وحدك من يئنُّ متألمًا...

بجوار عمود إضاءة صدئ، وقفتُ محدقًا ببقعة الضوء المشعة بخفوت عبر تلك الليلة الحالكة.. للوحدة قدرة على تضخيم الأمور، وذلك المصباح الضئيل استطاع إثبات وجوده برغم وحدته...

اما حان الوقت لوحدتي أن تسعفني قليلًا؟

يذكرني وميض المصباح بالثقب الدودي، كلاهما لامع بقوة، وجاذب للعين والروح...

لم أكتف بالوقوف وحيدًا، بدأت خطواتي في اقتيادي عبر الشوارع الضيقة، أجهل سبيلي ولا أنظر إليه أساسًا...

الوقت يمر، والأفكار تتوالد وتصرخ راغبة في فرض سيطرها على عقلي، ولكني أكبحها بقدر استطاعتي، فإن ضعفت إرادتي، فسيصير ذلك مفتاحًا لباب من أبواب الجحيم...

لماذا لا أغير الماضي؟



كعادتي كلما جاءت تلك الفكرة ببالي، يتردد صوت جدي مكررًا تحذيره من العواقب الوخيمة، ولكنه يتناسى أنه قد سبقني لذلك بالفعل.. ربما كانت قراراته هي الخاطئة وقتها، وليس الرجوع للماضي ذاته...

لماذا لا أرى جدي.. أروى.. أبي وأمي.. ولو دقيقة واحدة؟

انتابني إحساس ببلل بارد يجتاحني.. انتزعتني المفاجأة من دوامة الأفكار، لأجدني واقفًا في بداية الشاطئ، بينما تتدافع الموجات نحو قدمي، فتتصادم بعنف ثم ترتد لثوانٍ، ثم تعيد اندفاعها بلا كلل...

أكملت تقدمي نحو البحر.. وحيدًا يستقبلني البحر بفوهته المظلمة.. تحتضنه أمه الأولى، السماء.. فيمتزجا معًا ولا يعكر اتحادهما الكامل إلا أميال لا نهائية وبعض الغيوم الثقيلة...

الماء يرتفع، ويلامس ركبتي، ثم يكمل تحرشه بعدما لم يجد مني ردًا أو دفاعًا متكاسلًا عن النفس.. يحيط بخصري تمامًا.. يعجبه جسدي النحيل، وقد ظننت البحر من محبي الامتلاء!

يستمر الزحف إلى صدري، فيرتجف قلبي لثانية.. تتلاقى برودة البحر مع برودة ما بين الضلوع...

يرمي البحر بأكتافه، ليعانقني كالمحبين.. لقد اشتقتُ للعناق، والبحر يدري ذلك جيدًا.



السباق يوشك على الانتهاء، والبحر متقدم بنقاط عديدة.. المنافسون مستسلمون منذ خط البداية، وبداخلي تتنامى دوافع الانتحار...لعلها النهاية وبداية لقائي بجدي و"أروى" مجددًا...

يا لك من غبي! المنتحرون في النار، وجدك و"أروى" من ذوي القصور في الفردوس...

وحيدًا معذبًا كنت في حياتك، ووحيدًا معذبًا ستكون في مماتك..

أتوقف.. أتراجع.. يغضب البحر ويرفض التخلي عن فريسته.. لقد استحقها، ولن يتنازل عنها بسهولة.. اسحب جسدي بعيدًا.. يدوي صراخ البحر.. يستميلني، يقنعني بالمنطق..

بالإغواء..

بالإكراه...

يدرك البحر هزيمته، فيأبى إلا يتركني إلا بموجة عالية أخيرة تلطم خدي وتفيقني للأبد...

بقدمين مبتلتين داخل حذاء بالٍ، أعودُ للمنزل بينما انبلج الفجر..

لم تصِح الدِّيكة، ولكن الملائكة هبطت من سماوات عليا، لتلقي نظرة على المصلين والمستغفرين، وربما لتصطحب روحًا خيرة احتواها جسد طيب كمثل المسجى أمامي بعدة أمتار..



الأهالي يتزاحمون عند مدخل ضيق لإحدى البنايات، بينما يتعالى صراخ وعويل عديد من سيدات أهل المترل...

يحمل بعض الشبان جثمانًا ملفوفًا بغطاء قماشي أبيض اللون، ويسارعون لنقله لسيارة دفن الموتى...

الصراخ يتواصل، والنحيب والنشيج يتزاملان في الأجواء...

وقفت وحيدًا مستترًا بحائط امتلأ بالعبارات المنقوشة والسُّباب ومختلف أشكال الدعاية الانتخابية، لأتأمل حسرة أهل الميت على فراقهم إياه...

سيدة بدينة في الخمسينيات، تولول وتنوح بكل ما أوتيت من قوة.. مرددة الجمل المعتادة في الترحم على الميت، وفراقه الصعب وتعدد خيراته التي ملأت مترلها طوال وجوده معهم..

أنحزن على موتانا لمجرد انقطاع أعمالهم عنا وخدمتهم لنا؟ أم نشتاق لمواساتهم لنا بأوقات الانكسار، وضحكاتهم إذا ارتاح البال بعد عناء..

الحياة تستمر، والزمن لا يتوقف بسبب مصائبنا.. افتقادنا إلى وجودهم معنا جسدًا وروحًا هو السبب الحقيقي لبؤسنا..

يعجز هؤلاء عن رؤية مفقوديهم، بمجرد إغلاق الأعين ولف أشرطة الأكفان.



جميعهم عبيد للزمن.. مضطرون للانصياع لقوانينه، والتغاضي عن قبضته الباطشة للجميع بلا استثناء...

إلا أنا!

أنا الاستثناء الذي سيحطم القاعدة..

تركت الجنازة خلفي.. ما فات قد فات...

يختلط بداخلي غضبي وحماستي، فتشتد قبضتي..

انزاحت عني خواطري السوداء، وخبا صوت تحذيرات جدي، حتى صمت..

ولجتُ إلى الشقة، وأخرجت توصيلات الساعة، لأبدأ في شحنها..

لن أُضيِّع المتبقي من عمري في اشتياق بلا طائل...

تنتظرني أيام تسعة،ثم بعدها أعود لماضيّ الخاص لأرى الأحباب...

***



45

خمسة أسابيع (ب.أ)

***

تنعم إدارة المصحة على نزلائها الكرام بإمكانية التريض بحديقة المصحة يوميًّا، وتكفل لهم سائر المتطلبات الترفيهية، لتوفير الحالة النفسية الهادئة والمساعدة على الشفاء العاجل..

تبًّا لهم...

ألقيتُ نظرة على الحديقة لمرة أو اثنتين خلال الفترة السابقة.. تبدو بالفعل مكانًا جيدًا، ولكني ببساطة لا أرغب فيها..

أكتفي بولوج الشمس لغرفتي يوميًّا ساعات قليلة.. فأتدفأ بمجالستها، وأُتمتم لها بما يجول بخاطري.. متمنيًا ألا يتذكرني الطبيب "عصام" ويفرض زيارته المعتادة.



طرقات على باب غرفتي، ويظهر وجه الممرض البارد...

- الدكتور عصام عاوزك يا أستاذ أدهم..

- خليه يدخل.. محدش قال لأ.

- عاوزك برة ف الجنينة يا أستاذ أدهم..

تبًّا.. السماجة تصل لأعلى معدلاتها الآن...

متململًا رافضًا بداخلي أن أخرج، اضطررتُ للقيام والسير كتابع لخطوات الممرض نحو الحديقة...

مساحتها واسعه ولا بأس بها.. تزدان بشجيرات مهذبة بعناية، وآرائك خشبية متناثرة تستظل بالأشجار لتمنح جالسيها متعة الاحتماء من وهج الشمس إذا ازداد عن حده...

نقترب نحو الطبيب "عصام" الذي يشير للممرض بيده ليسمح له بالانصراف...

- إيه رأيك في التجديد دا يا أستاذ أدهم؟

مططتُ شفتي مظهرًا الامتعاض، بينما بداخلي اعترف أني اشتقتُ للخروج ولو لحظات من ذلك السجن الأبيض المسمى اعتباطًا "الغرفة"..

- الشمس النهارده هادية، واعتقد الجو مناسب إننا نكمل دردشة.



النكتة قد تضحكك في البداية، ولكن بتكرارها تزداد سخافتها.. لم يعد لفظ "دردشة" يثير غيظي، صرت أتجاهله تمامًا كأنه تراب منثور...

فتح مذكرته الصغيرة، وأمسك بقلمه مستعدًّا..

- زي ما حكيت لنا، انت كنت شغال في الراديو، وكان ليك برنامج مشهور جدًّا، وأنا شخصيًّا بمجرد ما استلمت حالتك، دخلت على النت وسمعت شوية حلقات منه.. برنامج حلو فعلًا.."

وما الفائدة أيها المعتوه؟ لقد تبخر كل ذلك في لحظات...

- كنت بتختار مواضيع حلقاتك إزاي؟

لا أدري كيف ستعالجني تلك الأسئلة الساذجة مما يتصور أنني مصاب به.. أنا في الجحيم الآن وعقابي هو قضاء الأبدية بصحبة ذلك الطبيب الممل...

- آه صحيح.. دا سر المهنة.. طب بلاش السؤال دا يا أستاذ أدهم.

وكذلك باقي أسئلتك عديمة النفع..

لم يشعر "عصام" بالملل، رغم صمتي التام أمام جميع أسئلته السابقة.. إلى أن بادرني بالسؤال الذي تمكن من استفزازي على الرد.



- كان ليك خناقة قبل كده مع مديرك زي ما حكيت.. بس مش فاكر الاسم دلوقتي.

- ممدوح.

- برافو عليك، وسبب الخناقة كان مدام "أروى".. مظبوط كده؟

وهأنت الآن بذِكرك اسمها، تدقُّ آخر مسامير نَعْشِك أيها الوغد.

- أيوه مظبوط.

- هل كنت معتاد تتخانق مع الناس كتير يا أستاذ أدهم؟

- أنا مليش في الخناقات، بس لما اللى قدامي يستفزني ويمس حد يهمني زي أروى، يبقى كان لازم يحصل كده..

- هل بتحس أحيانًا بأنك عاوز تإذي حد.. أي حد؟

- وأحس بكده ليه؟.

- مقصدش، بس اغلبنا بيجيله ساعات إحساس إنه جواه غضب كبير ممكن يخليه يدمر أي شيء قدامه، وبيبقى عاوز يطلعه على أي حد.

- قصدك إن ممكن الغضب دا يخليني أقتل؟

تلعثم "عصام" لثوانٍ، ثم دوّن بعض الكلمات بالمذكرة...



– طيب بالنسبة للكوابيس اللي قلت إنها بتجيلك زمان.. انتهت ولا لسه؟

– من ساعة ما جيت المصحة مشوفتش أي كوابيس، ولا أحلام.

***

بالطبع أنا أكذب.. لم تتركني الكوابيس يومًا، بل زادت عن حدها فصارت تأتيني نهارًا وليلًا.

أرى جميع من فقدتهم، ونظرات الأسي والانكسار تظهر جلية بأعينهم.. يرفضون ملامسة أناملي الباحثة عنهم، ويكتفون بالابتعاد الصامت نحو فراغ معتم...

– عاوزك تركز معايا يا أستاذ أدهم في الجزئية اللي جاية.. ليه نفسك ترجع للماضي؟

– أنا فعلًا رجعت للماضي يا دكتور.. إنتو ليه مش مصدقين!

– اعذرني، بس إنت مدرك إن اللي بتقوله دا صعب يتصدق.. أنا هفترض إن فيه حاجة فعلًا اسمها آلة الزمن.. ليه نفسك تستعملها عشان تعيد الماضي تاني؟ مش المفروض إن اللي راح انتهى لحاله خلاص؟



يجهل أمثالك مدى القوة الحقيقية للساعة.. إنها ببساطة وسيلتي الوحيدة لاكتشاف إجابة ذلك السؤال اللعين.. ماذا لو؟

إنه السؤال الذي جال بفكر كل من على وجه الأرض.. ماذا لو؟

ماذا لو حدث هذا بدلًا من ذاك.. ماذا لو لم أختر تلك، واخترتُ هذه.. إنه السؤال الذي قررتُ أن أسأله لذاتي، وأن أبحث عن إجابته بدلًا من الاكتفاء بانتظار الرد الذي لن يأتي أبدًا..

***

أتذكر يومًا ما بعدما صارت الساعة بحوزتي.. سألت "أروى" سؤالًا كهذا..

أجابتني "أروى" بكل بساطة، وكأن الإجابة بذهنها منذ أن وُلدت

- أنا مش محتاجة أغيّر الماضي.. في الحقيقة أنا عجباني حياتي زى ما هي، ومش معترضة على أي خطأ حصل زمان.. أنا كل حاجة حصلتلي اتعلمت منها الدرس اللي يمنعني من تكرارها تاني في المستقبل.

بس دا ميمنعش إن فيه شوية ناس عرفتهم، وندمت على كده.. فممكن أرجع أمنع صداقتي بيهم من الأساس.

واتبعت قولها بضحكة طويلة، شاركتها وقتها تلك الضحكة، بينما أنهت كلامها قائلة:



- أهم حاجة إني قابلتك يا أدهم، ولو كان بإيدي إني أعرفك من قبل كده، كنت عملتها من زمان.

احتضنها في حنان، بينما ينهمك "عصام" في حديثه ليقطع عني سيل الذكريات الممتعة، والتعيسة كذلك..

***

بدأ مللي في الإعلان عن ذاته، فرغبت في التحرك من موضعي بدلًا من تلك الجلسة الرتيبة.. رافقني "عصام" في المشي بأرجاء الحديقة، وكأنه أب يأبى ترك ابنته الصغيرة وحيدة بمكان جديد..

استمر "عصام" في افتراض وجود آلة الزمن، وبدأ في تفنيد اقتناعاته بتلك النظرية.. ملأ عقلي بكثير من الهراء، إلى أن وجدت بداخلي نزوعًا نحو الاقتناع بآرائه..كيف ذلك؟

هل استطاع بملله وهرائه أن يحكم سيطرته على عقلي بالفعل؟

سألته في يأسٍ...

- "دكتور عصام.. إيه نهاية كل الكلام دا؟

- أكيد هتخف وتبقى إنسان طبيعي من تاني..

- أنا مش مجنون يا دكتور، ومحدش عاوز يقتنع بكده.



– يا أستاذ أدهم.. كلنا مجانين، بس بنسب مختلفة.. انت بس نسبتك أزيد من الطبيعي.

توقفت عن السير لحظات، وحدقت بعينه قائلًا بهدوء..

– يعني فيه أمل إني أخف فعلًا؟ أنا مش قادر أستحمل تاني.. عقلي هينفجر من كتر اللي بيحصل، ومبقتش عارف أنا صح ولا غلط.. مش معقول إن الناس كلها غلطانة.. هل أنا اللي بتخيل فعلًا كل اللي حصل؟ هل هقدر أتغير وأرجع لطبيعتي تاني؟

أمسك "عصام" بكتفي في رفق، وابتسم..

– متقلقش يا أستاذ أدهم.. الإرادة في الشفاء هي أولى خطوات الشفاء الحقيقي، وهتعرف إنك اتغيرت فعلًا، لما تلاقي صعوبة في الرجوع لعاداتك القديمة من تاني.

ثم اتسعت ابتسامته وزفر في راحة قائلًا:

– النهارده بس أقدر أقول إن العلاج بدأ.. اتفضل معايا يا أستاذ أدهم نكمل مشي شوية.

تبعته في صمت، بينما تتوالى أسئلته في تتابع ممل كالعادة..

***



46

عامان، أسبوعان، يومان (ب.أ)

***

الأفق بلون أخضر مشابه لعيني "أروى".. بل هما بالفعل عيناها.. اتسعتا لتصيرا عالمًا بأكمله، أُحلق أنا فيه بجناحين من الأوراق المملوءة بأسطر كتبتها يومًا ما لوصف حبيبتي "أروى"...

تبتعد عني العيون لتفسح المجال لملامح "أروى" في الظهور.. يطالعني وجهها الباسم، تنظر لي بعينين ناعستين تزيد بهاءها آلاف المرات...

اشتقتُ إليكِ، وقلبي تنقصه دقات تحمل اسمك..



أحاول إقناع ذاتي بأنك لم ترحلي.. على الأقل للأبد، بل ستعودين يومًا ما.. لكني أعدّ الليالي والساعات، فيمضي الوقت ولا تعودين!

شمس عظيمة تشرق على دنياي، وكأساطير الأولين، تتكاثف طاقتها فتتجمع وتستحيل نجمًا مضيئًا في فراغ الكون.. تقترب مني "أروى" للمرة الأولى منذ زمن بعيد..

تشير نحوي بيدها، تحثني على المجيء.. أحاول التحرُّك فتخذلني ساقي، وتنغرس بالأرض الضبابية حولي.. أقاوم، فيزداد انغراس ساقي.. يترعج وجه "أروى" الرقيق، فتترقرق الدموع بعينيها الزمرديتين.. تغمضهما لثوانٍ، ثم تُعيد فتحهما فتكشف عن عينين خضراوين تمامًا، بلا ألوان أخرى...

يمتد الأخضر فيكسو وجهها كمدٍّ بحري هائج، ثم ينساب نحو رقبتها النحيلة وسائر أجزاء جسدها العاري...

في دقيقة، صارت "أروى" كيانًا زمرديًّا متلألئًا.. ظلت على حالتها لوهلة، ثم بدأت البثور، والتقيحات في التوالد على جسدها كبراعم بسرعة غريبة..

امتدَّت التشقُّقات بجسد "أروى" حتى صارت جثة متحللة اجتاحها العفن.. ارتعبت ورغبت في الفرار، ولكن إلى أين؟



الكون عيون ترمقني، وضحكات ساخرة، وصرخات لا تكف عن الانبعاث من مكان ما...

أرى الزمن أمامي كعابر سبيل.. أناديه، فيخرج لسانه ساخرًا.. يستفزني بقدرته على الاستمرار بدوني...

أستيقظُ في اللحظات الأخيرة كعادتي، بينما تتسارع نبضات قلبي ويزداد شهيقي وزفيري...

إلى متى سأتعذب في ذلك الجحيم؟!

رُحماك يا الله...

***

مرّ يومان، وباقي سبعة..

الآلة تلتهم الطاقة كوحش مسعور، في انتظار امتلائها لأملأ أنا رغباتي التي اجتاحت عقلي وقلبي معًا...

عدتُ طفلًا ساذجًا متشوقًا لرؤية والديه بعد يوم دراسي طويل..

قضيتُ الأمس في استرجاع ذكريات حياتي، وبدأت في تأريخ كل حدثٍ أرغب في استعادته للمرة الأخيرة..



كثرت الأحداث، وتناثرت القصاصات حولي حتى امتلأ الفراش.. فجمعتهم برفق وبدأت في تثبيتهم على الحائط، ليرسما حول الصورة الفوتوغرافية حاجزًا دائريًّا يبعد عنهم أخطار الزمن..

وقفتُ شاردًا أمام القصاصات.. تأملت كل كلمة دوّنتها، وكل حرف يرسلني ليوم قضيته برفقة مَنْ أشتاقُ إليهم الآن.. بينما لا تكف أصابعي عن لمس خنصري اليسرى المرصعة بخاتم الزواج..

دائرة تجمع أيامي السعيدة مع "أروى"..

يوم أن قابلتها بالمحطة.. تلعثمي وغضبها، ثم فرحتها الغامرة...

يومًا ما لم أكن بصحبتها في أثناء فترة مراهقتها بالمدرسة، ولكنها قصت لي أحداثه المضحكة بالتفصيل.. عندما تسلّمت خطابها الرومانسي الأول من عاشقها السرِّيّ.. كم رغبت في رؤية دهشتها وخجلها الخلاب!

يوم زفاف "خالد" – رحمه الله –

و يوم زفافنا..

ثم دوائر أخرى تجمعني بجدي وعائلتي التي لم أهنأ بها إلا زمنًا قليلًا..

خلال أيام شحن الآلة، كانت تلك القصاصات بالإضافة إلى مذكرات جدي هما ما أقتات به منتظرًا زوال الوقت..



أتذكر فترة ما بعد حادثة "خالد".. كانت "أروى" خير سند لي، وازداد دعمها كثيرًا بعد وفاة جدي.. بالطبع لم أخبرها بذلك، ولكنها ظنت اكتئابي المزمن وقتها سببه فقط وفاة "خالد" صديق العمر...

وحدها شعرت بما أعانيه بداخلي، وحتي بعد زواجنا، ظهر استياؤها في فترات عديدة بسبب شرودي الدائم، وجلوسي وحيدًا بمكتب جدي...

لم تمتعض، وظلّت برفقتي..تحتويني بذراعيها ليلًا، فتمنحني ذلك القدر من الهدوء والسكينة الذي يُعينني على النوم بسلامٍ كل ليلة...

أتخيَّل لو كان جدي حيًّا، وكانت "أروى" برفقتنا بالشقة.. كانت ستنال أخلاقها وأفكارها إعجابه الشديد..

كانت ستنال ثقتنا بالتأكيد، وربما رافقتنا في مرة من المرات برحلة من رحلاتنا.. ولِمَ لا؟

لطالما رغبت في إهدائها ما لم يَنَلْهُ أحد.. كنت سأصطحبها في ليلة خاصة بنا، فنحضر معًا حفلًا ساهرًا للسيدة "أم كلثوم"...

أو نقضي يومًا بديعًا بحدائق الأندلس الغناء، منعزلين عن منغصات حياتنا اليومية البائسة...

عندما أخبرتها برغبتي في الزواج بها بشقة جدي القديمة.. لم تعترض، بل أشرق وجهها بابتسامتها وأخبرتني:



- مش مهم هنبقى فين.. المهم إني معاك..

لطالما كررت "أروى" تلك الجملة.. هل أدركت أنها يومًا ما ستفارقني بلا رجعة؟

أُمسك بهاتفي وأستمعُ مرات ومرات لكلمات أغنية "على الحجار".. أشتاق لسماعها كنغمة اتصال من "أروى"..

"ليه فجأة بقيت مستني لوحدي..

إني أتكلم واحكيلك واشكيلك همي"

***



47

عام (ب.أ)

***

تندرت مسبقًا من سرعة مرور الشهر الأول، ففوجئت بانتهاء العام الأول بأكمله..

صرتُ أفهم أسباب سعادة أصحاب الإنجازات، بمرور عامهم الأول، وكلما مرت الأيام، ازددت اقتناعًا بأن ما مَرَّ كان الأفضل في تلك الفترة...

مثل اليوم منذ عام، لم يكن حالك كما الآن..

ضقتُ ذرعًا بجلسات "عصام"، حتى وإن أضمرتُ ذلك بداخلي، فبدا ظاهرًا بالنسبة لـــ"عصام" بنفسه أنني لم أعد أطيق صُحبته..



بالأمس كانت جلسته الأخيرة معي...

احتدَّ الحوار بيننا بخصوص الساعة.. بوغت بإصراري على صحة الأحداث، بعدما توهَّم أنه قد نجح في الشهور السابقة في علاجي من الهراء الذي امتلك عقلي..

حاول استدراجي لمعرفة موضع الساعة ومذكرات جدي.. بالطبع لم أخبره، فلا أستطيع المخاطرة بوجود الساعة مع أحد بخلافي مهما يكن..

أخطأ "عصام" عندما أنهى الجلسة بخبر شديد الخطورة..

أخبرني أن نتائج فحص الطِّبِّ الشرعي لجثة "أروى" تضمنت الإشارة لوجود جنين في أسابيعه الأولى داخل رحمها...

ألجمتني المفاجأة.. اسوّدت الرؤية أمامي، ولم استعد وعيي إلا بعدما وجدت قبضتي تنهال على وجه"عصام" وجسده ناعتًا إياه بالكذب..

أمسك "عصام" بأنفه محاولًا إيقاف النزيف المنهمر، بينما أسرع الممرضون وكبلوني بقوة، واجتمعوا بقوتهم وعددهم ليرغموني على الانصياع للمحقن الذي انغرس في أوردتي..

تنسحب الرؤية في هدوء.. بينما تنتزعني قبضة اللاوعي من عالمنا هذا..



اليوم، أخبروني بمنعي من التعامل مع الآخرين.. سيكتفون بإدخال الطعام اليومي وأقراص الدواء من فتحة الباب المخصصة لذلك، ويتولى عمال النظافة إعداد غرفتي مرة كل ثلاثة أيام.. بينما للغرفة دورة مياه ملحقة بها، فلا داعي للخروج من الغرفة..

سجنٌ انفرادي بلا أى ألوان.. لا شيء غير بياض يخترقه شعاع الشمس لفترة وجيزة، يتبعها نظر مستمر لقمر وحيد في السماء..

رفقيَّ اثنان يأتيان وقتما شاءا، ولا يرحلان.. يأتي الصمت بصحبة الزمن.. يتضاحكان معًا ويسخران من ذلك البائس المسجون داخل زنازين عقله المعتل...

تتسلل أحيانًا بعض الألحان الموسيقية المنبعثة من راديو أحضرته إحدى العاملات لتزجية أوقاتها بالمصحة.. تصل أصوات "أم كلثوم" و"عمرو دياب" في مزيج عجيب عبر الردهة إلى غرفتي وبعض الغرف القريبة.. بخلاف هذا، فلا شيء يؤنس وحدتي...

ولماذا أرغبُ في ذلك؟

بدأت في التأقلم على تلك الوحدة خلال الشهور السابقة، وبإمكاني أن أكمل حياتي على هذا المنوال.. فمن هو مثلي لا يستحق الصحبة، ولن يجد فيها راحته أبدًا..



وحدهم من فقدهم يمتلكون القدرة على إعادتي لحياة البشر مرة أخرى.

آه لو امتلكتُ الساعة الآن!

***

مرَّت الشهور واقتربتُ من إكمال عامي الثاني بين أسوار تلك المصحة.

تعرَّضت صحتي لفترات اعتلال عديدة، كان سببها امتناعي عن الطعام لأيام.. ببساطة زهدتُ في تناول اللُّقيمات، وكم راودتني الأفكار السوداء وتأملات لا أرغب في الإفصاح عنها حتى مع نفسي..

سقطت تحت رحمة أقراص الدواء، ونحل جسدي كثيرًا.. تركت لحيتي بلا تشذيب، فنمت وتكاثفت، ثم قصَّها الممرض يومًا ما، ثم نمت مرات ومرات..

منذ أسبوع، قررت إدارة المصحة أن تكافئني قليلًا، بعدما وجدوا مني كامل الالتزام بقواعدهم، وبقائي في منفاي المعزول لما يقرب من عام...

فوجئتُ بمن يحادثني عبر الباب ليخبرني بالاستعداد للخروج من الغرفة، لملاقاة ضيف قد أتى لزيارتي بالحديقة..



ترى مَن سيرغب في رؤيتي الآن؟ ولم؟

نهضت نحو الباب، فاصطحبني الممرض إلى الحديقة.. تذكرت أن قدمي لم تلمس تلك الردهة إلا منذ عام كامل.. أيمكن للزمان أن يمرَّ بتلك السرعة فعلًا؟

نقترب نحو إحدى الآرائك، فيستدير الجالس عليها نحونا، لأجد أمامي صديق الطفولة "أحمد ياسين"..

- "أمريكاني!

هُرعت نحوه محتضنًا إياه بكل اشتياق.. احتضنني "أحمد" كذلك بشوق مماثل..استمرَّ ذلك دقيقة، لم أتمالك فيها نفسي فانهمرت دموعي.. لم أجد منفذًا لما بداخلي إلا البكاء...

أمسك "أحمد" بكفي مسندًا إياي لنجلس على الأريكة، بينما اكتفى الممرض بالوقوف على مقربة منا متحفزًا في حالة حدوث أي مشكلات..

أكملتُ بكائي، بينما استمرَّ "أحمد" مربتًا على كتفي.. سألت بعض دموعه أيضًا لما يراه أمامه من إنسان تحطم كليًّا.. فقدَ كلَّ ما ملكه طوال حياته في لحظات قليلة...

حاولت التماسُك، ونظرت لصديقي.. بدأت الكلمات في الخروج من حنجرتي بصوت خشن لشخص لم يعتَد محادثة الناس منذ شهور.



- وحشتني يا أحمد..وحشتوني كلكم.. شريف وصبحي، ويوسف و....

توقف لساني قبل ذكر اسم "خالد".. وفهم "أحمد" ما قصدته ولم أقلهُ.. فصمت كذلك وخفض رأسه متمتمًا بالرحمة للفقيد..

- احكيلي يا أحمد.. عاملين إيه كلكم؟ ومحدش جه يزورني ليه؟

امتقع وجه "أحمد"، وشعرتُ به كمن يحمل جبلًا على ظهره...

- الشلة ضاعت يا أدهم.

- إيه اللي حصل يا أحمد؟

بدأ "أحمد" في إخباري بأسوأ الأنباء...

كانت وفاة "خالد" حدثًا مؤثرًا في مسيرة حياتنا جميعًا، وأتت مُصيبتي لتقضي على ما تبقى فينا من صمود.

قلّت لقاءات الأصدقاء حتى انتهت تمامًا.. فكلما اجتمع الشمل، تذكروا مفقوديهم، والشلة التي لم يبق منها إلا ثلاثة أشخاص فقط.. فلم يعد "شريف" على طبيعته بعد الحادث.. أصاب العرج ساقه اليسرى بالفعل كما تنبأ الأطباء، وانتهت قدرته على احتمال البقاء بمصر بعد شفائه، فقرر السفر بعيدًا عن موطن يعيد تذكيره بخسارته يوميًا..



أما "صبحي" في الشهور السابقة، ازدادت شراهته لتدخين السجائر، إلى أن انتشرت الأقاويل عنه بين الجيران والأصدقاء، أنه قد بدأ في تدخين الحشيش، الذي سرعان ما كان سببًا في إدخاله لعالم الإدمان، فصار متعاطيًا لأنواع أخرى أكثر إفسادًا لجسده، وابتلعته تلك الدوامة السوداء...

"يوسف" بالتأكيد كان أكثر المتضررين من وفاة "خالد"، فجميعنا نعلم علاقتهما الوطيدة العابرة لحدود الصداقة، فصارا كأخوين مختلفي الآباء..

للأسف، ساءت شخصية "يوسف" كثيرًا بعد الحادثة، وتفاقمت الخلافات بينه وبين خطيبته "منى"، حتى انتهت خطوبتهما تمامًا، ومنذ شهرين، لم نعد نراه، ولا يجيب عن اتصالاتنا المتكررة..

زفر "أحمد" زفرة حارة بعدما انتهى من حديثه المشئوم.. أطرقتُ برأسي آسفًا لما وصل إليه حالنا..

تبًّا لقدرة بعض اللحظات القصيرة على إفسادها لحيوات العديد منا بتلك السهولة..

– وأنا يا أدهم والله من ساعة ما دخلت المصحة وأنا بحاول أجي أزورك، ومن سنة كنت خلاص قربت أجيب الموافقة على الزيارة، لقيتهم بيرفضوا بحجة إنك ضربت دكتور وممنوع من الزيارات.. أنا لما صدقت أخيرًا إنهم وافقوا الأسبوع اللي فات.



ربتُّ على ركبته مظهرًا العرفان له..

- إنت أخبارك إيه يا أدهم؟ حاول تخلي بالك من نفسك.. مش عاوزك تضيع إنت كمان مني.

- أنا لسه هضيع يا أحمد؟ أنا خلاص.. كل حاجة راحت من إيدي.. أروى راحت، أصحابي راحوا، صحتي راحت وعقلي مش متأكد من وجوده أساسًا.. أنا حتى خايف أكون بحلم دلوقتي ومتخيل إنك قدامي.

- متقولش كده يا أدهم.. إحنا بنتعلم طول حياتنا من اللي بيحصل لنا، وأكيد كل حاجة ليها سبب وتفسير.. أنا عارف إنك مقتلتش أروى.. مستحيل حد كان بيحبها زيك ويقتلها...

حتى لما البوليس كان بيستجوبنا بعد الحادثة، كلنا قلنا إنه مش معقول إنك تقتل أساسًا، وخصوصًا أروى.

- طب مين يا أحمد؟ أنا هتجنن.. أنا مكنتش موجود يومها عشان أشوف اللي قتلها حتى.

- ارمي حمولك على ربنا يا أدهم، وبإذن الله تخلص فترة علاجك هنا، وتخرج لنا تاني.

لا أعلم لماذا شعرت بغضب ينمو بداخلي.. بدأت نفس كلمات "عصام" ومواساته الباهتة في الانبعاث من فم "أحمد".



أي علاج تتفوهون به أيها الأغبياء.. لا فائدة من علاجي، ولا من بقائي حيًّا من الأساس...

كرهت ذاتي والمصحة والممرضين والأطباء و"عصام" اللعين، وتلك الأيام التي جعلتني شخصًا مثيرًا للشفقة...

اعتراني الضيق، وفوجئت بوقوفي فجأة.. توجَّس الممرض واقترب مني بسرعة..

قلت بهدوء عجيب:

– مع السلامة يا أحمد.. أنا راجع أوضتي تاني.

عجز "أحمد" عن رد سلامي من فرط المفاجأة، تجمَّد بموقعه جالسًا على الأريكة، ثم هزَّ رأسه آسفًا بينما بدأتُ في الابتعاد عنه بصُحبة الممرض...

أعلم أنها الزيارة الأولى والأخيرة لي.. لقد تشتَّت الجمع للأبد.. يا للخسارة!

***

ضحك "خالد" قائلًا:

– مشاكل إيبه يا كبير.. دا الليلة هنا وسرور، أوعدك إنك مش هتنسى الليلة دي.



– انت يا بني لسه فيك العادة الهباب دي؟

أجاب "صبحي" ضاحكًا:

– معلش يا عم أدهم.. إنت عارف لازم سيجارة علشان أركز في الكلام التقيل دا.

قمت لفتح النافذة جلبًا للهواء.. كم أكره السجائر.. قلت لـــ"صبحي" مازحًا:

– كفاية واحدة بس.. مش قاعدين في قهوة إحنا..

وبالرغم من اختلاف طباعهم قليلًا، حيث إن "خالد" دائمًا يميل للهزر والضحك بصوت عالٍ، كان "يوسف" عصبيًّا بعض الشيء، ولكن وقت أن يجتمعا تذوب الفوارق فأشعر بالفعل وكأنهم توأم لأم واحدة وأب واحد...

***

اعتدلت في مجلسي نحوه ثم قلت بصوت حاولت منعه من التهدج:

– شريف.. الحادثة كانت رهيبة فعلًا.. حالتكم كلكم كانت سيئة جدًّا.. إنت تعتبر أحسن واحد.

***

أغمضتُ عينيَّ مُحاولًا إقناع نفسي بالنوم، بينما انتابتني تلك الخواطر.. أضغطُ بالوسادة على رأسي كي تتوقف تلك الذكريات عن زيارتي.. بدأت بالابتعاد فعلًا، بينما تتكون فكرة جديدة أكثر جنونًا من أي شيء آخر أصابني مسبقًا، وكانت تلك لحظة من اللحظات النادرة التي ابتسمت فيها منذ زمن بعيد..





48

عامان، أسبوعان وتسعة أيام (ب.أ)

***

استيقظتُ اليوم بإحساس لم يزُرْني منذ عامين.. أشعرُ بارتياح.. بنشاط.. بتفاؤل عجيب...

تقترب الساعة من إكمال شحنها.. بضع سويعات تفصلني عن أولى رشفاتي من نبع الماضي...

الغرفة تحتاج لإضاءة أفضل.. احتفالًا باليوم الموعود أخيرًا.. أمسكتُ بستارة النافذة وأبعدتها لأسمح للضياء بانتشاره المقدس في أرجاء الغرفة الضيقة.



تنعكس أشعة الشمس على صورة العائلة الفوتوغرافية على الحائط.. تحيطها قصاصات الورق كإكليل من الورود على شاهد القبر...

تأملتهم جميعًا.. تصمت الصورة بمحتواها، لكني أُحادثهم حديث الروح المُشتاقة لمن سكنوها مسبقًا...

اللقاء يقترب.. وداعًا لكل الأيام البائسة التي أغرقتني بمستنقعات الشجن والاكتئاب..

تتحول نظراتي إلى الرف الخشبي، حيث ارتكنت مجموعة الكتب.. أقلّبُها بيدي، قارئًا عناوينها المختلفة المدونة على حوافها العريضة...

أثار انتباهي كتابًا أجنبيًّا بعنوان "حياة الفنان الهولندي م. س. إيشر".. أتذكّر افتتان جدي مسبقًا بالفن، وتقديره التام لمكانته في السمو بروح الإنسان..

سحبت الكتاب برفق، وفتحتُ غلافه لتستقبلني صورة مطبوعة لأحد أعماله الفنية العجيبة كعادة سائر أعماله الشهيرة..

الصورة تتناول منزلًا من الداخل تتناثر به درجات لسلالم سبع بزوايا غير منطقية، فتارة تجد سلمًا يصعد للأعلى، ثم ينحرف يسارًا ليُفضي إلى مدخل حديقة ما، وبجانبه سلمًا مثبتًا بالحائط بشكل غير منطقي، يستخدمه شخص مجرد بلا ملامح للنزول لباب في حائط



جانبي.. بينما ينبثق سلم من السقف لينتهي إلى شرفة ضيقة، يستند إليها شخص آخر وينظر إلى باقي السلالم التي يصعد بها الأشخاص ويهبطون لأماكن أخرى...

لوحة مُدهشة بالفعل، يرتبك العقل أمامها ساعات، فاقدًا القدرة على فهمها أو تحليل منطقها أو منظورها الهندسي غير المعتاد...

ما أشبهَ تلك اللوحة بما أصابني وأصاب جدي من قبلي...

هل قام جدي بتأويلها كذلك مثلي أيضًا؟

فها هي حياتنا صارت معقدة كتلك اللوحة.. بلا مركز للتوازن ولا للجاذبية الأرضية، مليئة بالطرق المتداخلة والسُّبل المؤدية لأماكن يصعب على عقلنا إدراكها، فلا ندري إذا كنا نحيا يومنا أم أمسنا...

لحظة ما.. هي ماضينا، فتستحيل خلال ثوانٍ لحاضر نحياهُ ونتأثر به ونُؤثِّرُ فيه، ولحظة أخرى هي حاضرنا، فتصير ماضيًا يمكن بسهولة معايشته مرة أخرى وقتما نشاء، ومستقبل ننتظره بكل شغف، ليُضاف للأوقات التي يمكننا إعادة زيارتها بعد ذلك إذا استدعت الحاجة.

لحظة ما، يتغير فيها كل ما ظنناه ثابتًا لن يضيع مِنّا..

لكل لحظة قيمتها التي لا تُعوَّض..

بِمَ فكّر ذلك العبقري الهولندي عندما صنع ذلك العمل العجيب؟



انتزعت الصورة من الكتاب، وألصقتها على الحائط بجوار ألبومي الخاص المكون من صورة العائلة وقُصاصات التواريخ...

أنظر إليهم جميعًا.. تتكامل أركان الصورة الآن.. كل شيء يُفضي بنا إلى كل شيء.. هكذا هي حياتنا، وهكذا يجب علينا أن نحياها..

انتهى الوقت، واكتمل اشتياقي باكتمال شحن الآلة، نفد الصبر وحان موعد العودة...

عادت الساعة إلى قبضتي.. أشهقُ من فرط الإثارة، ويتسارع تنفسي.. لا أصدِّقُ أنني سأسافر أخيرًا..

سحبتُ قُصاصة من قصاصات الحائط.. تختار أصابعي قُصاصة يعود تاريخها لذلك اليوم الذي أخبرتني "أروى" به خلال فترة مراهقتها.

تتحرك أناملي بسرعة على الساعة،لتقوم بتسجيل المكان، والزمان المطلوبين..

أقفُ بمنتصف الغرفة، أزحتُ الأثاث لأسمح بوجود فراغ مناسب لتكوين بوابة السفر..

أضغطُ على زر الساعة بكل اشتياق لأعلن تمردي على ظروف الزمان والمكان..



يرتبك هواء الغرفة قليلًا وأشعرُ باهتزاز جزيئاته، بينما يبدأ الثقب الدودي في التكوُّن.. ألف مرحبٍ بأصدقاء الأيام الخوالي...

بقدمك اليمنى، فلتخطُ أولى خطواتك مرة أخرى نحو الماضي أيها المسافر!

***

كأي مدرسة للفتيات بالمرحلة الثانوية، لا بد أن ترى العديد من الطلاب الذكور وقد تناثروا بالمنطقة.

إنها فترة عنفوان المراهقة، حيث يبدأ الاهتمام بالطرف الآخر في الإعلان عن وجوده، وينتفض القلب مدركًا أن وقت نبضاته الحقيقية قد أزف..

استترت بدكان قريب من بوابة المدرسة.. باقي على زمن خروج الطالبات حوالي خمس دقائق..ألمح التأهُّب واضحًا على بعض الشباب المجتمعين بجانب سيارة أحدهم..

لم يكن الزمان بعيدًا عن حاضرنا، ما يقرب من عشر سنوات أو أقل، فلم تختلف المشاهد بالشارع ولا هيئة الناس كثيرًا عن الموجود حاليًا..

بدأت الفتيات بالخروج من المدرسة، وعيناي تمشطاهم بحثًا عن حبيبتي..



تمرُّ الدقائق ويبدأ الفتيان في الرحيل، بعدما ذهبت أسباب وجودهم.. بينما قلّ عدد الفتيات الراحلات..

ظهرت أخيرًا "أروى" بصحبة فتاتين من زميلاتها.. أحسّ قلبي بوجودها منذ اللحظة الأولى، تماسكت بصعوبة واستندت على الجدار المجاور للدكان..

أراقبُ ضحكاتها الهادئة، كانت أكثر هدوءًا وقتها، وعيناها الخضراوان تلمعان ببهجة المراهقة، تحتضن كتابًا عريضًا، بينما تتهدل حقيبتها الصغيرة بجانبها.

بدأت "أروى" في الابتعاد رفقة صديقاتها عن موضعي، فتتبّعتُهم سرًّا ومحاولًا الاحتفاظ بمدًى مناسب يمكنني من الرؤية بدون أن يدركني أحدٌ منهن.

إحدى صديقاتها يعلو صوت ضحكها تعقيبًا على كلمات قالتها الأخرى، فتكتفي "أروى" بضحكة خافتة، وابتسامة خجول.. كانت مثلما عرفتها دائمًا.. مثالًا للهدوء والجمال.

لمح نظري ذلك الطفل الصغير ذاهبًا نحوهنّ.. مثلما أخبرتني "أروى" مُسبقًا، طفلًا صغيرًا بشعر أشعث وملامح غاية في البراءة.. ربما كان ابن أحد حراس البنايات بذلك الشارع.. يُهرع بقدميه الصغيرتين ليلحق بهن.. يقترب في خجل ويناديهن..



- أبلة.. أبلة.

تلتفت "أروى" والفتاتان بتعجب، بينما يخرج الطفل ورقة مطوية من جيبه، ليعطي أروى إياها..

تقرأ عيناي شفتيه الدقيقتين، فأُدرِك ما قاله.

- الجواب دا عشان حضرتك..

ثم يسارع بالفرار خجلًا..

أتأمل "أروى" تفض الورقة، لتقرأ عيناها السطور المدونة، ثم تتورد وجنتاها خجلًا، وتبتسم.. تختطف إحدى الفتاتين الورقة، فتقرؤها سريعًا ثم تندلع ضحكة أخرى تنافس أختها في صخبها..

"كل الورود ولا حاجة جنب خدودك.. ياللي مفيش أجمل من عودك.

عنيكي خضرا وجناين سرحت أنا فيها.. بدعيلك يا رب دي حبيبتي خليها"

هكذا أخبرتني "أروى" مسبقًا بمحتويات ذلك الخطاب الرومانسي

بالطبع تندرنا معًا على ركاكة الأسلوب، ولكن حينها شعرت بسعادة شديدة بعدما علمت بوجود عاشق سِريٍّ، يرسل أول خطاباته لها.



تخيلت لو كنتُ في موضع عاشقها السِّريِّ، لكتبت لها:

"لا أطيقُ غيابك عن عينيَّ...

ولا أحتمل رؤيتكِ، فبها أتذكر استحالة وصولي إليكِ!"

هكذا يمارس الزمن دائمًا عادته المفضلة في اقتناص أحبابنا، قرة الأعين وساكني القلوب..

أكملت "أروى" سيرها مع الفتاتين، بينما اتَّكأت على الجدار وبداخلي فيضان من المشاعر لا أدري وصفًا لها...

منكسر الفؤاد، تملؤني بهجة الدنيا برؤيتها، تنساب دموعي بلا توقف، بينما توقفت عقارب كل الساعات عندي ما إن ابتسمت ابتسامتها الهادئة.. تتثاقل خطواتي نحو شارع جانبي خالٍ من المارة، وتضغط أصابعي أزرار الساعة لإنهاء جرعتي الأولى وإعادتي للحاضر مرة أخرى.

***

قمتُ بثلاث رحلات أُخريات خلال الشهر التالي لتلك الرحلة..

تابعت أحداث يوم أن تقابلنا للمرة الأولى، ورأيت دموعها الغزيرة وقت أن خرجت من باب المحطة...وقتها وددتُ لو احتضنتها ساعات.. عسى أن تشرق عيناها ببسمة لطالما رغبتُ في رؤيتها..



ثم رأيتني ألحقُ بالحافلة التي استقلتها "أروى"، جاهلًا ما سيؤول إليه حالي بلقائي بها، واندماج أفئدتـــنا إلى الأبد.

انتظرت فترات شحن الآلة كي تنقضي لأتنسم لحظات رؤية "أروى"..

لم أرغب في الانقطاع عن رؤيتها كلما أمكنني ذلك، ولكنه كان من الصعب عليَّ أن أعود ليوم مقتلها.. لم أصِلْ لكامل استعدادي النفسي للوصول لذلك اليوم.

كلما وقعت عيناي على قصاصة يوم مقتلها.. أشعر بها تناديني، ترغمني على اختيارها..

ماذا لو كنت قاتلها بالفعل؟

هل أحتملُ صدمةً ثانية أشد وأقوى مما سبقتها؟

تراودني الشكوك.. تحاصرني بين مطرقتها وسندانها، وأحاول إرجاء رحلة يوم مقتلها لحين آخر.

***



49

عامان وشهران (ب.أ)

***

بعد هروبي صرت قضية رأي عام، وظلت كذلك شهرين.. شهرين فقط، ثم طوتني الأذهان بعيدًا وانشغلوا بشيء أكثر جدلًا.. بعد عام.. كنت منسيًّا تمامًا.. حتى بالنسبة للأجهزة الأمنية..

استبدت بي الحماسة للإعداد لرحلتي التالية...

كم تمنيتُ أن أشهد زفاف والدتي ووالدي- رحمهما الله -، ولكن منعني من ذلك زيارة جدي السابقة لنفس الموعد..

أردت يومًا وددت فيه رؤيتهما سعيدين، فبسعادتهما تصفو روحي وتبتعد عنها الأحزان ولو ساعات قلائل..



اخترتُ ليلة حفل خطوبتهما.. أدخلت أرقام اليوم والمكان، وضغطت زر الساعة بينما يقتلني الشوق...

مترل جدي بشبرا، وإن كان الزمان رفيقًا به ولم يُحِلْهُ إلى تلك البناية القديمة التي استحال إليها الآن، فما زالت ألوان الطلاء لم تبهت بعد، وكذلك كان الشارع بأكمله..

تتناثر على قارعة الطريق الدكاكين الهادئة، ولم تنتشر بالحي تلك الأبراج الخرسانية قبيحة الشكل والمضمون..

أخبرني جدي أن يوم حفل الخطوبة أُقيم بالشارع بجوار مترل العائلة بشبرا كما أرادت أمي.. فاجتمع فيه الأصدقاء والأحباب والجيران في جو بسيط مليء بالفرحة...

اقتربت أكثر نحو المترل،حيث اصطفت أمامه موائد معدنية بسيطة وضع عليها زجاجات المياه الغازية وبعض الأطعمة، بينما تناثرت مقاعد خشبية حولها وبجانب الجدران...

التفَّ الجميع حول عائلتي، يتباركون ويتضاحكون، بينما شغلَ أحدُهم مسجلًا أُذيعت به بعض أغاني الأفراح السائدة وقتها..

حاولت الاندماج بين الواقفين، ومشاركتهم الفرحة كفرد من أفراد الشارع.. ظنني بعضهم عاملًا من عمال الدكاكين، وقد جاء



لينال رزقًا قليلًا مما يناله الحاضرون، فمنحني شخصًا زجاجة وطبقًا ورقيًا به بعض الحلوى..

ابتسمت له بصمت، وأكملت اقترابي بهدوء نحو أفراد عائلتي لأحصل على رؤية أفضل...

الزحام شديد، بينما تجتمع النسوة حول أمي وجدتي، فأرى أجسادهم بصعوبة..

انزاحت الموانع، فرأيتها.. أمي الغالية، ملامحها الرقيقة، وبشرتها البيضاء المُشربة بالحُمرة التي أورثتني إياها،وقد ارتدت فستانًا فيروزي اللون، فجعلها ملكة متوجة بجانب أميرها...

بجانبها احتوتها جدتي.. "كاترينا ديمتريف".. فتاة بلاد الروس الباردة التي أكملت حياتها ببلاد النيل والشمس والصحراء...

اشرأببتُ بعنقي فلمحت والدي يمسك بأنامل والدتي.. كم كان وسيمًا وهادئًا، قبل أن تحمله الدنيا همومًا أطفأت لمعة عينيه، وأبعدت البسمة عن شفتيه بلا رجعة..

تابعتهم يتبادلون الحديث الخافت.. تضحك والدتي فتسري الضحكات والابتسامات بين الجميع، إلى أن جاء جدي مقبلًا من مدخل البناية مرتديًا بذلة أنيقة للغاية بدت غير متناسقة مع المشهد،



ولكنها أضْفَتْ عليه هيبةً ووقارًا، بينما حمل بين يديه علبة صغيرة احتوت طقمًا من الجواهر..

وددت لو أني حادثته وأمسكت بيده لحظات، كم اشتقتُ لكلماته! وكم أحتاج إلى مساندته في أيامي هذه!

اقترب جدي مسرورًا نحو والدي ووالدتي، احتضنهما وقبّلهما، ثم ناول والدي علبة الشبكة، فأخرج منها قطع الجواهر وبدأ في وضع خاتم الخطوبة حول أصبعها الرقيقة...

تملأ البشاشة وجه جدي وإيماءاته تغمرها خفة الظل، لم يَنلْ بعد هالة الحكمة المقدسة التي اعتدت رؤيته بها دائمًا.. تلك الحكمة التي دفع ثمنها غاليًا، بفقدان الأحباب والاغتراب عن واقع مرير..

انتشرت الزغاريد، وعلت أصوات التهاني والموسيقى، بينما اكتفيتُ بالصمت وعيناي تراقباهم جميعًا، وترتوي برؤيتهم في تلك الفرصة المستحيلة...

رُحماك يا الله.. أما كان صعبًا أن يستمر بقاؤهم معي؟

اضطررت للابتعاد والعودة لموضع رحيلي، بينما منعتني دموعي المنهمرة من رؤية طريقي بشكل واضح.

عدتُ لحاضري، بعد لحظات في الجنة...



لم أفعل شيئًا خلال الأيام التسعة التالية إلا التحديق في صورة عائلتي المعلقة على الحائط...

شتان الفرق بين صورة مسطحة باردة الألوان والمشاعر، ورؤيتهم رؤي العين والقلب...

أصابني الأرق بمجرد أن خطرت ببالي وجهة رحلتي القادمة..لعلها من أصعب رحلاتي...

رغبت في السفر لليلة حادث وفاة أبي.. امتلأت برغبتي في محاولة إنقاذه وإخراجه من حطام السيارة بعد أن انقلبت، ولكن أخاف مما سينتج من تدمير لمجرى الزمن من بعدها..

تحتل الفكرة كياني بأكمله.. الفرصة بيدي الآن، فإن رحلت والدتي في أثناء الولادة، فبإمكاني إنقاذ والدي من الحادث وإبقاؤه حيًّا..

استعدتُ ما أتذكره عن تلك الليلة مثلما قرأتها بالصحف في أثناء طفولتي..

ليلة اشتدت فيها الأمطار حتي صارت كالسيل.. اجتاحت البلاد يومها أجواء عصيبة، فاستحالت الطرق بحارًا تصعب القيادة فيها بشكل طبيعي..



استقل والدي وزوجته سيارهما عائدين إلى القاهرة بعدما كانا بإحدى المدن الساحلية عدة أيام.. الأمطار تزداد حدهما، والطريق موحش وشبهُ مظلم كأغلب الطرق السريعة وقتها..

أفادت تحقيقات الشرطة وقتها أن والدي فقدَ السيطرة على عجلة القيادة، نتيجة سرعته الزائدة والأمطار، فانقلبت السيارة عدة مرات، انتهت بوقوعها على جانبها الأيمن..

تُوفيت زوجة والدي فورًا نتيجة الصدمات، بينما تمكن والدي من انتزاع نفسه من السيارة، ولكنه قاسى الآم الحادث ثم تُوفيَ متأثرًا بجراحه التي نزفت بغزارة..

انتهى شحن الساعة، بينما لم أصل لقرار نهائي بشأن والدي..

***

اخترتُ موضعًا ووقتًا يقترب بشدة من التاريخ المذكور بخبر الحادث وقتها.. لم أخاطر باختياري لمكان بعيد عن موضع الحادث، فيستحيل وصولي إليه في ظل الطقس السيئ..

انفتح الثقب الدودي، فخطوت بداخله ليمتصني فورًا ويرسل جزيئاتي نحو يوم الحادثة..

بمجرد عبوري لم أُدرِك ما حدث..



أصوات الرعد والأمطار تضرب الأرض حولي بقوة، رؤية منعدمة في ظل سواد حالك بعدما اختبأ القمر خلف غيوم بلا نهاية...

فُتحت بوابتي في وسط الطريق الأسفلتي.. تقف قدماي على أرضه الصلبة الغارقة تمامًا بذلك السيل...

في قلب السواد برزت دائرتان مضيئتان تقتربن مني بسرعة رهيبة، تجمدت بموضعي لأجد انحرافًا مرعبًا يصيب الدائرتين...

بصعوبة تفادتني السيارة التي ابتعدت عني، وبدأت في الالتفاف حول نفسها بقوة، والاصطدام بأحجار ضخمة على جانب الطريق ثم انقلبت تمامًا وأكملت زحفها نحو رمال الصحراء المحيطة بالطريق العام..

توقف عقلي عن التفكير لحظات.. ماذا فعلت؟!

يحاول عقلي أن يرسل أوامره لجسدي بالتحرك، فلا أتمكّن.. تهطل الأمطار وتُغرِق جسدي، بينما أُتمتم لنفسي..

- "أنا اللي قتلتهم!"

***

أسرعتُ راكضًا نحو السيارة، والماء يتفجر تحت قدمي.. أقتربُ بخطي حثيثة، بينما ألمح بقعة من الدم تمتد أسفل السيارة..



ألفُّ نحو جانبها الأيسر، أحاول فتح باب السائق لإخراج والدي.. لا أجد أي استجابة منه كدليل على بقائه حيًّا.. أحاول جذب جسده المحشور في المقعد، فأتمكّن من ذلك بعد جهد شديد..

أمسكت بوالدي بصعوبة، بينما جعلته مياه الأمطار زلقًا وارتخى جسده بعد أن فقد الوعي.. حاولت جَرَّه بعيدًا عن السيارة فلم يتزحزح عن موضعه السابق إلا مترًا واحدًا..

تركته بجانبي لألتقط أنفاسي لحظة، حاولتُ إسعافه بالضغط على قفصه الصدري، وإمالة رأسه قليلًا، فبدأ في السُّعال بقوة، بينما بدأت دماؤه النازفة من جروح جسده في تلوين أصابعي بلون أحمر مقيت..

حاول التحدث، فلم يتمكن.. اكتفى بالنظر إلى وجهي بخوف.. هل لاحظ ملامحي؟ هل أدهشه أوجه الشبه بيننا؟ أم منعته الظلمة من تبين ملامحي مثلما أحاول جاهدًا أن أرى وجهه مرة أخيرة؟

يتمتم والدي هامسًا بصعوبة بالغة..

أحاول أن أقتربَ برأسي لأستمع.. يُخيَّل إليَّ ترديده لنفس الكلمة..

"أدهم"..."أدهم"...."أدهم"

شهقتُ ملتاعًا بينما ابتعدتُ عنه.. أكانت كلماته الأخيرة هي اسمي!



لا يمكنني البقاء هنا.. لم أتمكّن من إنقاذه.. يا ليتني ما جئت لتلك الليلة!

بيدي دفنتُ جثمان جدي، وبين يدي فارقتْ روحُ أبي جسده..

يا الله!

***

أعادني الثّقب لغرفتي.. ابتلت أرضيتها بما تقطر من جسدي من ماء.. ارتميتُ على الفراش باكيًا صارخًا..

أتَّجِهُ إلى الحائط وتمتدُّ يدي لتنزع صورة العائلة عنه.. أقطعُ الصورة بعنف، وأبعثُر القُصاصات في كل مكان..

أكان الظهور المفاجئ للبوابة في قلب الطريق سبب الحادث؟

أقمتُ بتغيير الماضي بذلك؟ أم كان ذلك قدرهم من الأساس؟

يؤدب الزمان من يرغب في كسر قواعده، وأنا قد نِلتُ عقابي، ولكني أأبى التوقُّف.. أما لعنادي هذا نهاية؟

صرتُ رمزًا للخراب والدمار.. تسببت رحلاتي في خلخلة مجرى الزمن..

وكلما أردتُ تصحيح خطأ، كنتُ سببًا في صنع غيره...

تبًا لي!



50

عامان وثلاثة شهور (ب.أ)

***

أدركتُ منذ البداية أن الساعة سلاح ذو حدين، ولكن اليوم فقط ظهر حدها المظلم.

عدتُ لخوفي السابق من استعمال الآلة مرة أخرى.. كيف يمكنني التمييز بين القدر وصنيع يدي؟

متى يتغير الماضي بسببي، وكيف يتأثر؟

وما الفائدة من زيارتي للماضي؟ لقد صرت نسخة أخرى من جدي بالفعل..

ألعن نفسي آلاف المرات يوميًا..



اعتاد الناس ترديد مقولة "الوقت يشفي كل جراحنا".. فما بال جراحي لا تهدأ؟ أهي شديدة العمق فلا تبرأ؟ أم لم يمر الوقت الكافي لزوالها؟

قطع خواطري ما لم أتخيله قط.. هواء الغرفة بدأ في التخلخل، بينما شعور بشيء قادم يتزايد بداخلي..

كيف ذلك؟ الساعة لم أشحنها منذ رحلتي الأخيرة...ولم أضغط أزرارها.. ما هذه البوابة المتكونة أمامي بقلب غرفتي؟!

***

انتفضتُ هلعًا، بينما الثقب يزداد في الاتساع أمام ناظريَّ، ويُلقي بضيائه الشديد على محتويات الغرفة..

التصقت بجدار الغرفة خوفًا.. ما هذا يا الله!

ومن البوابة، عبرت قدم تليها الأخرى، ثم انتهت برجل كامل ظَلَّ واقفًا أمامي دقائق في صمتٍ..

رجل يُشبهني تمامًا.. أو هو أنا!

اقتربتُ بحذر، بينما أبحثُ عن كلمات أبدأ بها أسئلتي العديدة..

أجابني بهدوء:

– أيوا يا أدهم.. أنا إنت.. من المستقبل..



بادرتني نسختي المستقبلية بالكلام.. حلّ ذلك قليلًا من عقدة لساني، فسألته:

– إيه اللي جابك؟

– أنا جيت عشان كان لازم أرجع واحذرك.

اتكأتُ على الفِراش، بينما تأملته لحظاتَ..

ما زال نحيلًا مثلي، ربما أكثر بقليل.. ذقنه شبه حليق، وازدادت شُعيرات رأسه البيضاء.. جذبتني نظرات عينيه.. تكاثف الإرهاق حولهما وصنعَ هالاتٍ دكناء غائرة، ولكن شراسة عجيبة تشعُّ منهما أثناء حديثه..

– إيه اللي هيحصل في المستقبل؟ وإمتا المستقبل دا أساسًا؟

– كفاية تعرف إني جايلك من سنتين من دلوقتي.. لكن أكيد مينفعش أحكيلك إيه اللي هيحصل..

– طب إيه اللي ناوي تحذرني منه؟

– تدخلاتك في الماضي.. طبعًا إنت فاكر اللي عملته من شهر لما قتلت أبوك.. أيوا يا أدهم، إنت السبب في الحادثة، ومتحاولش تضحك على نفسك وتتوهم إن دا قدرهم..

تبًا.. لا يعلم باطنك إلا نفسك...



أكمل أنا المستقبلي كلامه بنفس النبرة الهادئة:

– بس تصدق إنك لو معملتش الرحلة دي في معادها، كان الماضي هيتأثر بشكل أكبر، وكان والدك هيعيش بعد اليوم اللي المفترض أنه كان تحصل فيه الحادثة.. الله أعلم وقتها كان هيموت إمتى، لكن أكيد كان هيحصل تغيير كبير في حياتك.

بدأت في التفكير فيما يقوله.. أكان القدر هو رحلتي نفسها؟ أم وفاة والدي بسببي؟

– متتعبش نفسك في التفكير.. كفاية الأخطاء اللي أنا عملتها، واللي إنت هتعملها خلال شهور.

– أخطاء إيه بالظبط؟؟ أنا لازم أعرف عشان معملهاش!

أجابني غاضبًا:

– غبي.. إنت فاكر إنك كده هتمنع اللى بيحصل.. بالعكس، دا بيزرع الفكرة جواك أكتر وأكتر، وعقلك الباطن هيفضل يكبرها وينميها، والوساوس تزيد وتتحول لأفعال متقدرش تمنع نتايجها بسهولة!

دفنت وجهي بين كفيّ.. امتلأ عقلي بالأسئلة..

نظرت له بتوسُّل، ثم انتبهت ليده اليسرى الخالية من خاتم زواجي بـــ"أروى"..



- طب جاوبني.. جاوبني على السؤال دا بس أرجوك.

- بلاش يا أدهم.. بلاش.. عارف إنك عاوز تعرف مين اللي قتلها.

انسابت دموعي، بينما أنتظر الإجابة منه.. فوجدته قد ارتكن على الحائط، وبدأت ملامحه في الانكسار.. خفت صوته وبدأ في الكلام بصعوبة..

- إحنا اللي قتلناها فعلًا يا أدهم.

***

صرختُ في وجهه فجأة، واندفعت نحوه ممسكًا به من تلابيب قميصه.

- إزاي؟! إزاي هقتل أروى!

دفعني بعيدًا، وأكمل:

- إياك تكمل في السفر للماضي.. دمّر الآلة.. ارميها.. اعمل أي حاجة إلا إنك ترجع تاني.. إنت مش متخيل مدى الأضرار اللي عملتها.. حاجات كتير هتبوظ، والقتل بالنسبة لك هيبقى شيء عادي.. إنت فاكرني زيك لسه محتفظ بعقلي؟ أنا خلاص خسرت كل حاجة، وإنت الحل الوحيد عشان كل حاجة ترجع صح من تاني!



- مقدرش أدمر الآلة.. لو الآلة راحت أنا هروح معاها.. مفيش حاجة مصبراني على الحياة غير ساعات الماضي اللي بقضيها كل أسبوع.

هبَّ شبيهي واقفًا، وبدأ الغضب في الارتسام على وجهه...

- يبقى مفيش غير حل واحد.. إنت لازم تموت!

قرن قوله بالفعل، فاقترب مني في سرعة وبدأت قبضته تلفُّ حول عنقي.. حاولت مقاومته، فلم أتمكّن من فكِّ أصابعه القوية.. يضغط بعنف محاولًا خنقي، والهواء يبدأ في الانقطاع عن رئتي....

حاولتُ محاولةً يائسة، فركلته بقدمي بعيدًا.. انزاح قليلًا، فقمت مسرعًا نحو زاوية المطبخ، وجدتُ أمامي سكينًا، استدرت نحوه ممسكا بالسكين لأخيفه.

انقضَّ نحوي، فلم يتوقف إلا بعدما التحمَ السكين بمعدته...

نظر لي غاضبًا ثم بصق دمًا لثوان، وأكمل هجومه نحوي، فسحبت السكين بقوة ثم طعنته برقبته بكل عنف...

ارتمى على الأرض بجانبي، بينما تنزف رقبته بشكل مرعب، وصار جسده كالمصفاة يتسرب الدم فيها من رقبته ومعدته...

انكمشت بعيدًا عنه، بينما تُغرِق الدماء أرضية الغرفة وتتناثر على أسفل الحائط.. انتفض جسده دقيقة، ثم همد تمامًا..



ظللتُ أنشجُ فترة طويلة.. ثم اقتربت منه ببطء، وتحسّست ملابسه حتى وجدت الساعة...

أمسكت بها وضغطت زرها، فانفتحت البوابة مرة أخرى..أعدتُ الساعة لموضعها بملابسه، ثم قذفت بجسده نحو الثقب...

ابتلعت البوابة جثمانه لتلقيه بموضعه أينما كان.. أتمنى إلا يجده أحد من بعدي.

***

إذن.. لم يتبقَّ لى إلا سنتان في عمري.. لا مزيد من التهاني السخيفة بدوام العمر، ولا مزيد من الأحلام المؤجلة والأماني السعيدة.

***



51

لا فائدة من تسجيل التواريخ.

***

أنا من سيقتل "أروى".. لا أعلم كيف ولا متى، ولكن حكمي قد صدر غيابيًّا، ولا يتبقى إلا تنفيذه في موعده المجهول...

هل ستتمكّن يدي من قتل "أروى" فعلًا؟

كيف صرتُ ما سأصيره؟ وأيُّ قلبٍ يحتمل قتل تلك الملاك؟

اااه....تبًّا لي!

صار خوفي الأكبر هو خوفي من ذاتي.. إلامَ سأصيرُ؟

عقلي يخونني، أفقد سيطرتَه على جسدي وأفعالى.. غضبى الدفين يتحرر ويتعملق، بينما أنزوي بالأركان تاركًا اليد العليا له..



لا بد من استعادة مكانتي.. لا بد أن أمنع ما سيحدث.. لا أملك خيارًا آخر!

***

أحتاجُ لجدي بشدة.. وحده يعلم حل مشكلتي..

ذهبت لوجهتي الأولى في رحلة تصحيح الزمان.. أرسلتني الآلة للأيام السابقة لرحلة الشدة المستنصرية.

اخترتُ يومًا اثناء فترة شحن الآلة، كنتُ قد قضيته خارج المنزل بصحبة "أروى"..أحتاج لمقابلة جدي وحيدًا دون إزعاج أو مفاجآت.

وهأنا أعود للمنزل القديم.. ظننتُ أن افتراقي عنه سهل، فبادرني الزمان بجمعي به مرارًا وتكرارًا.

أطرقُ الباب، فيتناهى لأسماعي خطوات جدي تقترب بحذر، أهمسُ:

– أنا أدهم يا جدي..

ينفتح الباب ببطء، فيراني جدي أمامه.. يندهش لمظهري المختلف عمًا يألفه..

– ممكن أدخل؟ أنا محتاج لك جدًا.

***



بغرفة مكتبه جلسنا معًا.. يعلم جدي جيدًا كيفية وجودي أمامه، ولكن لم يمنعه ذلك من الدهشة ولا إبداء التوتر...

– أنا حياتي بقت زي الزفت.. مش معتبر نفسي عايش أساسًا.. مش قادر أعمل أي حاجة بعد ما إنت مشيت وسبتني.

هبَّ جدي واقفًا وأشار بيده نحوي في رعب..

– "إياك تحكي حاجة.. مينفعش تغير الماضي يا أدهم!

– "لازم أغيره.. لازم عشان كل حاجة تتصلح وترجع لحالتها الطبيعية.

– ومين قالك إن دا مش وضعها الطبيعي؟ أرجوك يا أدهم تسمع كلامي.. بلاش تكرر أخطائي.. الدرس هيوجعك جدًّا.

– كلامك متأخر يا جدي.. أنا أخدت الدرس خلاص، ولسه فيه دروس تانية كتير.. بس الأهم إنك متسافرش الرحلة دي.. مقدرش أخسرك زي ما خسرت كل حاجة".

– مقدرش أمنع القدر يا أدهم.. إنت بتقول إني هموت بسبب الرحلة دي، وأنا مستعد لنصيبي يا بني.. زي ما كمان لازم تقبل بنصيبك وتكمل بقية حياتك.

جلس على مقعده وأراح كفيه على المكتب..



- مش شرط تكون خسايرك دي نهاية المطاف، الخسارة بتعلمك قيمة الشيء...حاول تفكر في بداية جديدة، أو على الأقل انسى النهايات القديمة..ارميها ورا ضهرك.

شعرت بيأس بالغ.. أعلم جدي وعناده الشديد.. لا فائدة من مناقشته.

أنسحبُ حزينًا، ناظرًا له للمرة الأخيرة، فألمح وجهه الصامت المشع بألم دفين.

هززتُ رأسي ببطء، وأخرجت الساعة لأضغط زر الرجوع..

***

مات جدي في رحلة الشدة المستنصرية.. لم يستمع لتوسلاتي، ورغب في إكمال قدره كما أراد.

لن أجد من يستمع لي أفضل من ذاتي.

خطوت بداخل الثقب لأعود لمواجهة نفسي بالمصحة.

اخترتُ ليلة من ليالي الحبس الانفرادي، وعدتُ إليها لأحذرني مما هو آتٍ.

ظننت نفسي الماضية ستصدم من ملاقاة نسختها الآتية من مستقبلها، فوجدتني مستلقيًا على الفراش صامتًا محدقًا في خواء الغرفة.



- أنا جايلك من المستقبل يا أدهم.

نظر لى بصمتٍ، ثم أكمل تحديقه لحوائط الغرفة.

- أنا جاي أحذرك من أفعالك.. مينفعش تغلط غلطاتي اللي عملتها.

تململتْ نُسختي الماضية، ثم أجابتني بهدوء:

- واضح إن الدوا بتاع الدكاترة خلاني أهلوس.. امشي، وسيبني من فضلك لأني مش فايق لأي تخاريف دلوقتي.

صحتُ به غاضبًا محاولًا إخفاض صوتي حتي لا ينتبه الممرضون..

- هلاوس إيه؟ أنا جايلك من المستقبل فعلًا.. إنت واعي، ومفيش حاجة مأثرة عليك، ولازم تفوق من حالتك دي.

بدأ في الانتباه قليلًا، والنهوض ببطء من موضعه.

- إزاي وشكلك لسه شبهي؟ وأنا المفروض هفضل محبوس هنا في المستشفى على طول.

- لأ مش هتفضل محبوس.. هتهرب.. كمان أسبوعين بالظبط، هيبقى فيه وردية تبديل الحراس والعمال، وهتكتشف أن العامل نسي يقفل باب أوضتك كويس.. هتستني لما يمشي، وهتفتح الباب، وتجري.. كمل جري لغاية اما تطلع للجنينة.. هتقدر بعدها تهرب من



فتحة السور اللي محدش مهتم بتصليحها.. حظك إن يومها أفراد الأمن هيبقوا سهرانين في الكافيتريا، ومحدش منهم مراقب السور.

لمعت عينا نسختي الماضية، وبدأ في الابتسام بينما شردت نظراته نحو الحائط مرة أخرى.

– قبل ما امشي.. إياك تحاول تغيير الماضي.

أتمنى ألا يمنعه شروده من سماع نصيحتي.

والآن تولد ذكرى ضبابية بعقلي تخبرني أن فكرة الهروب أتتني كرؤية في حلم بإحدى الليالي.. كلا، لم يكن حلمًا وإن أقنعني عقلي بغير ذلك...

استغللتُ شروده، وأعدتُ نفسي للحاضر بعدما انغلق الثقب خلفي بنجاح..

لقد كذبت على نسختي الماضية.. لم أخبره بالحقيقة كاملة..

لم أخبره بفعلتي الشنيعة يوم أن هربت من المصحة...

الطبيب عصام الذي فوجئ بفراري أمامه بردهة المصحة...

أحاول نسيان تفاصيل تلك اللحظة، ولكني أذكر وقتها انقضاضي السريع نحوه ورأسه الذي صدمته بعنف بالباب المعدني.. أدارت الصدمة عقله قليلًا، فلم أكتفِ بمرة واحدة.



تابعت صدم رأسه، حتى استحالَ قطعة من اللحم المهترئ!

لحظة واحدة تمكن فيها الوحش الكامن بداخلي في الخروج والقيام بما لا أجسُر على تصوره.. لم يرتكب ذلك الشاب البائس ذنبًا إلا وجوده بالموضع والزمان الخاطئين..

بل ارتكب ذنوبًا عديدة.. لقد أثار مللي، وأرغمني على استعادة أسوأ ذكرياتي، ولم يتوانَ عن ذكر اسم "أروى" أكثر من مرة...

لقد استحقّ ذلك الوغد نهايته الشنيعة...

***

عدتُ للحاضر، فما وجدت تبديلًا.. لقد استمر القدر كما يريد، وأخطأتُ جميع أخطائي كما لو كانت تحذيراتي هراءً لا فائدة منه..

يعلو نباح بعض الكلاب بالشارع، فيتردد صداها بغرفتي.. أيسخرون من هزائمي المتكررة؟

يزداد يأسي وتقل اختياراتي.. كل الطرق تؤدي إلى نهاية واحدة، أرفض بعناد شديد أن أصلَ إليها..

أشعر بأن نهاية رحلتي تقترب بسرعة مريعة.. كمن وصل لمحطته بدون استعداد، ولكن قبل أن أتخذ القرار الذي لا رجعة فيه، أحتاج لأن أطوي أكثر صفحاتي غموضًا...

أحتاجُ أن أُقابِل ساحرة القيروان..



لا أعلم أصلها، وبخلاف النزر اليسير مما قرأته عنها، فلا إثبات لوجودها في عالمنا من الأساس.

اختار يومًا تاليًا لأيام رحلة الأندلس، حيث واجهتها للمرة الأولى.

تحملني البوابة لزمن اشتقتُ إلى بلوغه، أتلمس أرض قرطبة الدافئة بشمسها ونسيمها العليل.

أنظر لنهر الوادي الكبير، وأُخاطِبه كصديق وفيٍّ يعود لزيارة أصدقائه القدامى، بينما أقتربُ من أسوار مدينة "قرطبة"...

انتهت المدينة من احتفالاتها، وعاد القوم ثانية لأعمالهم وشئون دنياهم. أدنو نحو السوق، حيثما رأيت الساحرة باتجاه الخان...

وجدت بموضعها السابق دكانًا مقامًا ثابت الأركان راسخ البنيان.. متى جاء؟ وكيف انتهوا من إقامته بتلك السرعة؟

تساءلتُ وأخرجتُ الأسئلة من جعبتي إلى الناس من حولي، فأنكر الجميع رؤية امرأة بالأوصاف التي ذكرتها لهم.. أهي هلوسات ظننتها حقيقة؟

قبعتُ بجانب الدكان وقد انتابتني الشكوك.. إلى أين ذهبت؟ ومن أين أتتْ؟



تنهش الأسئلة عقلي كفهد جائع.. أدركتني الإجابات فجأة بعدما رأيتُها بالأفق البعيد..

نعم.. ترتدي الملابس المُزركشة ذاتها، بينما اتكأتْ على عصا خشبية طويلة.. تسير ببطء كالعجزة بعيدًا عن طريقي بعشرات الأمتار.

هُرعتُ نحوها مهرولًا، التففتُ حولها لأرى وجهها، فوجدت امرأةً عجوزًا كسيحة، لا تُشبه الساحرة من قريب أو بعيد...

صرخت العجوز برعب، فابتعدت عنها قبل أن يظنني الناس لصًّا أراد سرقتها...

ابتعدت والدهشة تمنعني من إدراك ما أراه.. كيف هذا؟ لقد كنت واثقًا أني قد رأيتُها...

أشحتُ بنظري، فرأيتُها جيدًا تلك المرة بناصية طريق بعيد.. هرولت مرة أخرى تجاهها، فخاب ظني للمرة الثانية...

صرتُ كالسيدة "هاجر" الملهوفة الباحثة عن الماء بصحراء شاسعة ابتعدت عنها كل أشكال الحياة...

أراها أمامي بكل مكان.. تحوَّل الجميع إلى أشباه لها، ومن أعماق اللامكان يدوي صوت ضحكاتها الساحرة.. أُتمتم بداخلي، كيلا أسمع



إلا صوتي.. أرجوكِ لا تستمري في تعذيبي هكذا.. إني بائس ذليل، اراد الوصول للحقيقة لا أكثر.

فجأة وجدتها جالسة أمامي بنفس هيئتها السابقة.. زيها المزركش مختلف الألوان، وقرطها الذهبي الدائري المتدلي من أنفها.. بينما افترشت بساطها المصنوع من الخوص الملون..

بصوت شديد الوضوح والخفوت في آن واحد..

- "الحقيقة ليست هينة كما تظن.. فكيف تودُّ الوصول إليها بذلك اليُسر؟ "

***



52

نظرتُ نحوها فلم أجد بعينيها إلا البرودة التامة، وبرغم الشمس الساطعة، وأنفاس القوم الحارة من حولي، لكن اجتاحتني قشعريرة شديدة ارتجَّ جسدي إثرها...

- "لقد تأخرت.. ظننتك ستأتي مبكرًا".

قالتها بصوت يشوبه السخرية...

- "انتِ مين؟ وازاي بتوصليلي في كل مكان وزمان؟"

- "ألا تعلم من أنا؟ ألم يقنعك جدك بأني مجرد دجالة حالفها الحظ.. فليكن.. صدق ما تريد تصديقه، لكن كما قلتُ لك..

انتا ما مصدقني.. بكيفك"

- "انتِ عارفة كل دا منين؟



صمتت الساحرة قليلًا، واكتفت بالتحديق في عيني...

- منذ أن رأيتك أمس، وأنا أجهل أي سحر هذا الذي يأتي بصاحبه عبر مئات السنين.. لم يهدأ بالي إلا بمعرفتي لجميع أسرارك.. سحري يمكنني أيضًا من إتيان أفعال لا تتخيل وجودها.. بيدك قدرة لن يملكها أحد، لكنك أهدرتها في سخافات وهراء بلا سبب.

أقرنت قولها بإمساكها كفي اليسرى بقوة.. حاولت التملُّص، ولكني فوجئت بقبضتها الساحقة تكبل يدي بشكل عجيب...

- لا تتحرك.. دعني أقرأ لك كفَّك مرة أخيرة يا صغيري.. فلتعتبرها هدية الوداع..

نظرت لكفي لحظاتٍ، ثم نظرت لخنصري بسخرية واضحة.. ثم تصاعدت همهماتها المخيفة دقيقتين تركت بعدها يدي في عنف، راسمةً ابتسامة شنيعة على وجهها...

- "ملعون كما أنت، وهذا الجزاء الأمثل لمن يلهو بالزمن مثلك.

سألتها خائفًا عن معنى كلامها..

- ببساطة يا صغيري، أنا لا أرى لك مستقبلًا.. أو لعله مظلم للغاية فلا تراه عيناي.

ثم أشارت بسبابتها في وجهي محذرة..



- ولكنك تعلم جيدًا ما يمكن لعيني أن تراه.. تدبّر قولي جيدًا أيها الفتى!

سادني قلق عارم، وبداخلي يود السؤال الأكبر أن يُفصح عن كينونته.

- أعلمُ ما بداخلك.. ماضينا وإن مرّ، فإنه يحتل عقولنا إلى نهاية الزمان، وهذا هو قانون الحياة.. فالبدايات هي الأساس دائمًا.

تتكاثر الألغاز بين كلماها، وكلما أردتُ الإمساك بإجابة، أفلتت لتلحق بأخواها بعيدًا عن مجال إدراكي..

- بداخلك تعلم أن لا سبيل للراحة، وإن وجدها فستنالها بالاختيار الأصعب..

جدك كذلك يعلم هذا.. يعلمه جيدًا.. لقد أحسن الاختيار، ونال مُراده بالنهاية..

فماذا عنك؟

ثم مالتْ بوجهِها حتى دنت بشدة مني.. أشعر بأنفاسها الخانقة تقتحم روحي..

- سؤالك الأكبر يقتلك قتلًا.. أتتحكم بقدرك فعلًا؟، ولكنك تتناسى سؤالًا أعظم.

عادتْ برأسها للخلف، وأنهتْ كلامَها..



- هل ستفعل ما ستفعله.. حتى لو لم أُرشِدْك إليه؟؟.. انت صاحب القرار يا مسكين.

ارتجَّ جسدي، وقد أدركت أني التقمت طعمها بالفعل.. لقد اقتادتني نحو فخها بكل سهولة، بينما أديتُ دوري المطلوب باقتدار شديد.

انتهتْ أسئلتي.. فقمتُ واقفًا بانكسار.. نظرت نحوي، وللمرة الأولى والأخيرة شعرت بشيءٍ من الشفقة عبر نظراتها...

عدتُ للحاضر، بعدما غادرتني جميع الشكوك.. محطتي الأخيرة قد حان أوانها بالفعل!

***

يقول الفيلسوف الدنماركي "سورين كيركجارد":

"مهما تفعل في حياتك، فإنك ستندم عليه في النهاية "..

هكذا صرتُ الآن...

قوة الاختيار تنشأ من اضطرارك إليه رغم إدراكك لنتائجه...

لن أتمكن من إلغاء مستقبلي.. لن أستطيع إيقاف تحولي.. سأقتل أروى ولا أعلمُ حتى الآن كيف سيحدث هذا...

يقتلني ذنب جريمة لا أدرِي موعدها ولا سببها، ولكني أعلمُ أنها آتية لا ريب فيها كيوم الدين.



أنزعُ خاتم زواجي من يدي اليسرى بعنف.. أنا لا أستحقُّ شرف ارتدائه بعد الآن..

طرقتُ جميع الأبواب،وولجتُ جميع غرف الماضي المغلقة.. حاولتُ تصحيح مساري فخرجتُ عن المسار تمامًا..

مَنْ يسيطر على الماضي، سيسيطر على المستقبل...

اختياري الأصعب فعلًا يتمثل أمامي الآن.. يعلم بضعف قدرتي على المقاومة، والأقدار المتحكمة بأفعالي.. اجتمعت الظروف حولي لتدفعني نحو الهاوية...

أنظرُ للأعماق وصخورها الحادة بصمت،ولا يملؤني إلا الحسرة...

أغمضُ عينيَّ..أحاول أن أجلب السلام لروحي... ثم أقفز!

***

البدايات، وأحوالنا المختلفة تمامًا عن ذواتنا الآن...

عدتُ بالساعة بعيدًا عن شقة شبرا.. عدتُ إلى شقتي القديمة، لنفس النقطة التي اخترتها كبداية تدوين مذكراتي بالمصحة...

يوم أن أتاني خبر وفاة جدي، حينها بدأ كل شيء بالفعل!

انتقلتُ إلى ردهة شقتي.. أتذكّرها جيدًا برغم ابتعادي عنها فترة زادت عن الخمس سنوات..



أمسكُ بمقبض باب غرفتي الموصد.. لم أعتد إبقاءه مفتوحًا حتى وإن كنتُ بمفردي..

يُفتح الباب بهدوء، لأجد ذاتي نائمة على الفراش...

هل أنفذ قراري الآن أم أمنح نفسي مهلة أخيرة، لعلها تصيب هدفها فيحدث المراد بلا اللجوء للحل النهائي؟

بينما أنازع خواطري، رنّ المنبه بصوته المزعج.. أتأهّب وأنزوي بركن الغرفة بعيدًا عن مجال رؤية نسختي الماضية...

أُراقبُ أفعاله محاولًا كتم أنفاسي.. يلكم المنبه فيرميه أرضًا، يصمت الرنين كجثة انتزعت منها الروح...

يتأفّف، ثم ينهض بصعوبة من ذلك الفِراش الوثير متجهًا لخارج الغرفة نحو دورة المياه...

وددتُ مُفاجأته، ولكنه لم يمهلني وقتًا كافيًا، فانتظرته بصالة الشقة بعدما يفرغ من قضاء حاجته..

خرج نحو الصالة، فوجدني واقفًا أمامه في صمت...

كالعادة، أصابته الدهشة.. صرتُ قادرًا على استيعاب دهشة نسخي الزمنية حينما تتلاقى، ولكن تلك النسخة كانت الأكثر جهلًا بمجريات الأمور.. تلك نسخة من ذاتي لم تمتلك الساعة، ولم تعلم حتى بوجودها.



يتأمل هيئتي العجيبة بالنسبة له، ولكن بداخله يشعر بمشاركتنا لنفس الجسد والروح.. هذا أنا الذي يقف أمامي، ولكن كيف؟

– اقعد يا أدهم، واسمعني كويس.

ما زال متخشبًا كتمثال رخامي.. أشفق عليه كثيرًا، فما حدث وسيحدث لا يحتمله عقل بشري.. لم أحتمله أنا بالأساس بعد كل ما حدث وما رأيت، فكيف يكون حاله الآن؟

ببطء يتهاوى نحو أحد المقاعد، بينما يمنع نفسه من تصديق ما يرى.. شبيه له يحادثه ويطلب منه الاستماع!

دقائق طويلة مرت كالساعات، رويت ما سيحدث لنسختي الماضية.. أخبرته بذكريات المستقبل إن جاز هذا التعبير..

تحاشيتُ التَّطرُّقَ للحوادث العظمى، واكتفيتُ بإعلامه بوجود آلة الزمن، وجدي الذي سيظنه قد توفيَ، والأخطار التي ستنالنا معًا إذا أراد استخدام الآلة لإصلاح أحداث الزمان..

منحته خلاصة ما أدركته بنفسي، وأرغمني الزمان على إدراكه.. لا سبيل لتغيير الماضي،.وإن حدث فلن يكون للأفضل..

لقد حاولت ألا أفسد الزمان، فبادرني الزمان وأفسد حياتي.. أم إن حياتي كُتِب لها الفساد فعلًا قبل أن أولد؟



غاص بجسده في المقعد، بينما تتوالى كلماتي إليه.. أشعر باللهيب المستعر بداخله، ويزداد إشفاقي عليه...

بعدما انتهيتُ، لم يتمكن دقائق من التَّفوُّهَ بأية أحرف.. ثم كطفل بدأ تعلمه للنطق، سألني..

– يعني جدي هيطلع مماتش في حادثة السفينة؟

أومأتُ له برأسي إيجابًا..

– لكن لو مأخدتش الساعة، دا معناه إنه هيموت في الماضي!

أومأت له ثانيةً بكل أسف.

– طب ليه؟ مينفعش أنقذه ومستعملش الآلة تاني؟

– صدّقني مش هتقدر تمنع نفسك.. مفيش إحساس زي إحساس امتلاك الساعة.. الزمن قدامك كتاب مفتوح تقدر تسترجع أي لحظة فيه، ومفيش وجود لكلمة الفرصة الضايعة.

بس زي ما كل دا موجود، فيه كمان إحساس الندم، وإدراكك إن كل الماضي دا تعزية ضعيفة عن الحاجة اللي فقدها في الحاضر.

ألمح بعينيه ذات النظرات التي لمحتها بنسخي الأخرى.. إنه يرفض الاقتناع بأوامري، ويزداد التمرُّد بداخله كل لحظة..



يا الله.. لا أرغبُ في الوصول لخط النهاية بتلك الطريقة!

وكأنه أدرك ما أُفكّر فيه، فسألني بتوجُّس..

– طب إنت مش خايف إن اللي حكيته دا يأثر بالسلب على الأحداث بعد كده؟

يرشدني نحو منطقة الخطر بنفسه..

أجبتُه بهدوء محاولًا ألا أُثير تأهُّبَه..

– مفيش خوف من مناقشة المستقبل معاك.. لأني لازم أقنعك المرة دي.. مفيش مرة تانية.

تبدأ المعاني الخفية لكلماتي في التسلل لردهات عقله...

– أيوه.. إما أقنعك، أو هقتلك هنا، ووقتها هقدر أمنع كل اللي هيحصل في المستقبل.. دا اختياري الصعب اللي فشلت فيه قبل كده.

ظلّ جالسًا بالمقعد يبادلني نظرات الشك.. يجهل الوحش الكامن بداخلي، ولا يدرك مدى صدق كلماتي...

أشعرُ بالرفض المتنامي بداخله.. لن يتمكن من إيقاف نفسه عن قدره المحتوم..



اقتربت منه بهدوء، فأدرك ما انتويت فعله.. هبّ مسرعًا راكضًا لمنعي، فالتحمنا معًا في شجار عنيف..

أمسكتُ به من ذراعه محاولًا كسرها.. شلّ الخصم أولى الخطوات لإيقاف خطورته..

يحاول التملُّص من قبضتي، فيمسك بإناء فخاري يزين إحدى جوانب الصالة، ثم ضربني به في عنف، فغامت الرؤية عني قليلًا..

تميل كفة القتال نحوه.. فما زلتُ وقتها محتفظًا بحالتي البدنية السليمة، ولم تلتهمني أحزان الحياة ونوائبها.. لكني أكثر عنفًا، وقدرة على تخطي حدودي الحمراء السابقة..

تملكتني شهوة القتل.. أتذكّر يوم أن ذقتُها للمرة الأولى بعدما غرست السكين بصدر ذلك الرجل في رحلة الشدة المستنصرية، ثم الطبيب عصام، ثم "أروى" التي صرتُ شديد الثقة بأنها ضحيتي يومًا ما..

كسرتُ بقبضتي زجاج النافذة، وتناولتُ إحدى القطع العريضة ذات الحواف الحادة، فجعلتُ منها سلاحًا بدائيًّا شديد النجاعة..

حاولتُ طعنه بجانبه فتفاداني، وألقى بي نحو أرضية الصالة، حينها تمكّنت من طعن قدمه..

صرخ بعنف، بينما تتفجر الدماء من قدمه التي أصبتها في مقتل، فارتمى على الأرض وامتطيته محاولًا خنقه بيدي..



يشتد ضغطي على رقبته، بينما يزرق وجهه بشدة.. أشعرُ بوهن غريب ينتابني.. فتركته لحظة، بينما فقد وعيه نتيجة نقص الأكسجين...

استعدتُ قوتي، بينما ظلّ فاقدًا لوعيه بجانبي.. لن أضيع تلك الفرصة.. أُهرع نحو المطبخ، فأجد ذلك الحبل السميك الذي طالما تركته احتياطيًّا بأحد الأدراج، لعلني أستخدمه في ربط بعض حاجاتي يومًا.. ها قد أتى يومك بالفعل!

وجدته طويلًا بشكل كافٍ، فأمسكت به وعدتُ لنسختي الملقاة بالصالة.. حاولتُ حمله فلم أتمكّن بسهولة.. شتان الفرق بين جسدينا، فقمتُ بجرِّه على الأرضية حتى وصلنا للشُّرفة، بينما يتبع قدمه خط رفيع من نزف الدماء..

ما زال اليوم في بدايته، والشارع أمامي لم يمتلئ بالقدر الكافي...

لا بد من نهاية لكل ذلك..

تتردَّدُ تلك الجملة في ذهني، بينما تعقد أصابعي الحبال جيدًا حول أسوار الشرفة الحديدية...

لا يمكنني السماح لما حدث أن يحدث..

لا يمكن...

تيقنتُ من قوة الحبل وقُدرته على الاحتمال، ثم عقدت أنشوطة بدائية، لففتها نحو رقبة نسختي فاقدة الوعي...



أحكمتُ وَثاق العقدة، ثم حاولت إسناده على كتفي لإيقافه على قدميه..

ارتكنَ جسده المرتخي على السور، بينما صار شبه واقف بصعوبة..ها هي اللحظة الأخيرة..

أمسكت بقدميه، دافعًا إياه لأعلى بما أوتيت من قوة.. يميل جسده للأمام ببطء، ثم يتسارع سقوطه عبر السور.. إلى أن يندفع فجأه بكامل جسده خارج نطاق الشرفة..

صنع جسده قوسًا مشوهًا في الفراغ، ثم ارتطم بعنف بأسفل حائط السور.. استعاد وعيه بغتة، بعدما اشتدَّ وثاق المشنقة على رقبته.. يحاول الصراخ فلا يستطيع، وجسده بوضع صعب الإفلات منه.. يضطرب جسده اضطرابًا عنيفًا، بينما تتلاحق الأنفاس وتستعدُّ الروح للذهاب لمثواها الأخير..

أشعر بجسدي الحالي يتفتت...يختفي في الهواء.. يتلاشى لذرات ستندثر في لحظات..

خطتي تنجح، وقراري سيصلح ما أفسدته بنفسي...

يسكن جسد نسختي السابقة، وتبدأ بعض النسوة المارات بالشارع في الصُّراخ...

أغمض عينيَّ.. لقد نِلتُ مُرادي...

كم كنتُ غبيًا إذ ظننتُ أني ألهو بالزمان..

وإن أفعالي قد تعيده لحاله..كما كان...

نهاية





المسافر

الجزء 3 - THE TRAVELER

أعلم أنكم قد رأيتم من هم مثلي كثيرًا، وأنكم تجزمون بجنوني الآن...

ولكنني سأكمل لكم السرد هذه المرة بدون وسيط ينقل قصتي.. ستخرج أحداثها من فمي لآذانكم الغافلة.. لعلكم تدركون كيف انهدمت أركان حياتي ووصل حالي لما أنا فيه الآن من سوء ترثى له نفوسكم...

وما زلت مصرًا على رأيي.. فهو ما تبقى لي مما أملك بعدما ضاع كل شيء...

إذا أردتم سماع باقي قصتي، فلا تخضعوها لثوابتكم الهشة...

اتركوا وراءكم كل ما تعلمونه....

فقد كنتُ مثلكم، ولكني أدركتُ حقيقة ما نحن فيه من وهم...

لم يسمع من حولي أي كلمة مما دار بعقلي، ولكنهم أنصتوا بشدة لما قلته في الساعات التالية...

ولمدة خمس ساعات كاملة.. أكملت لهم قصتي..


9789774885273



دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر

E-mail : daroktob1@yahoo.com 01144552557